
نسمة جويلي
إرث الحكاية
أدب رحلات
اسوان
ASWAN
دار الشروق

إرث الحكاية

تم إنتاج هذا الكتاب بمنحة مقدمة من
مؤسسة المورد الثقافي



وبدعم من السيدتين شيرين عبد الباقي ومايرا.

كل الشكر للأستاذ أحمد أبو الشوك لإيمانه
بالفكرة ودعمه لها.

رحلات هذا الكتاب من إنتاج مشروع
لتعارفوا للثقافة و الفنون.

«شكرا لمن جعلوا حلم التجوال ممكنا».

إرث الحكاية

نسمة جويلي

تصوير: سيف الدين خالد ، أحمد صفي الدين

مراجعة لغوية: أسامة عرابي

التصميم والتنسيق: أحمد يس

تصميم الغلاف: هاني صالح

الطبعة الأولى ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب رحلات

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٤/٧٠٤٠

ISBN 978-977-09-3296-4

نسمة جويلي

إرث الحكاية

دار الشروق

إهداء الرحلة..

إلى الله.. الذي كتب الحكاية..

وإلى أمي.. أول من استمع لحكاياتي.

نسمة جويلي

« إرث الطريق هو الحكاية..

إرث الحكاية هو الحكمة..».

نسمة جويلي

عزيزتي مروة..

انتهت الرحلة..

لم تنتهِ حقا، فمصر أكبر مما ظننت... لكنها انتهت هنا.. داخلي أشعر أني استنفدت ما بي من معانٍ خلال العام الماضي... أحتاج بعض الراحة من السفر والكتابة.... لازلت أحبهما أكثر من أي شيء آخر أفعله لكني أحتاج أن أعتني بـ«ما» و«من» أهملت على مدار العام.. أحتاج أن أرتب حجرتي، وأن أعيد ترتيب صناديق الذكريات في مكتبتي وأن أغسل السيارة وأشتري لها معطرا جديدا وأن أصحب أمي للتنزه وشرب القهوة في أحد الأماكن التي تحب وأرمم ما انشرخ بيني وبين أصدقائي من البعد...

أكتب إليكِ الآن لأشكرك.. ولأجيب عن سؤالك الذي لم أعرف جوابه قبل بداية رحلتي... هناك أشياء نجهل جهلنا بها، وتبدو واضحة لأعيننا قبل أن نبدأها.. لكن التجربة تثبت أن ما ظنناه شيئا واحدا كبيرا هو - في حقيقته - ينطوي على الكثير من التفاصيل... وأنا.. قبل أن أبدأ الرحلة... كنت مأخوذة بفكرة أن نسافر لنعرف بعضنا بعضا... الثورة خلَّفت داخلنا جرأة ورغبة في الامتداد وأن نكون واحدا... وأفهم الآن أن ما شعرت به قبل عامين مَرًّا، كان شعورا مشتركا بيني وبين جيلنا الذي امتلك الميادين... هل تذكرين؟ كنا قد انتهينا لتونا من تنحية مبارك، فذهبنا للتظاهر أمام سفارة ليبيا لدعم الثورة هناك... وحين تحررت ليبيا، ظهرت الدعوات لرحلة

الحرية التي تمر بتونس وليبيا ومصر... وهل تذكرين أحمد الشحات؛ الشاب الذي تسلق طوابق البناية حتى وصل لسفارة إسرائيل وأنزل العلم؟ كأننا في ٢٠١١ تنفسنا شيئا جديدا في الهواء.. شيئا مس قلوبنا وأحيا فينا شجاعة التعبير عن أنفسنا وما نريد... وهذا الشيء حين مسني كتبت... فأحيا فيَّ حلما قديما لم أجد في نفسي الشجاعة على تحقيقه إلا وقتها.

أردت أن أسافر وأن أكتب عن مصر التي لا أعرفها... فكنتِ تسألينني أولا عن مصر التي أعرفها... وأردت أن أتعرف إلى الناس في كل مصر، وأن أعيش معهم وأروي حكاياتهم... فكنتِ تسألينني عن أي الحكايات أبحث. لم أكن أفهم سؤالك في البداية ولم أرَ داعيا له... إذ إن السفر يتيح لي دوما تجربة جديدة أكتبها... كنتِ تسألينني عن التجربة، ولا أعرف يقينا بِمَ أجيبك... وحين قررت أن أبدأ الرحلة لم تكن لديَّ إجابات، ولكن كان بي شغف... أن أسافر وأتعرف إلى الناس من أماكن مختلفة من مصر... وأن أكتب.

سافرت..

كان عقلي دوما يسعى إلى تقريب ما أفعله، إلى صور يعرفها أو يتمناها... وحين ركبت القطار واتجهت في رحلتي الأولى إلى الشرقية، استدعيت داخلي برامج ناشيونال جيوغرافيك... الجينز وشنطة الظهر وحس المغامرة... وترددت داخلي الجملة التي يضعونها بين الفواصل: let's get lost [١]... هناك نشوة يا حبيبتي لطرق الطريق:

(١) «لِنَتُهْ» أو «النضيعْ طريقنا».

هي نشوة الحكاية.. نسافر لنحكي.. حتى وإن اختزنا الحكاية داخلنا إلى حين... حتى وإن زادنا سفرنا صمتا... خلق الله الحكاية لتروى... وبقدر غرابتها وخروجها عن المعتاد لنا ولمن حولنا تزداد سحرا... ولا أظن أن هناك فارقا كبيرا بين ما يحبه الصغار ونحبه نحن... إذ إن الصغار لا حدود لهم... وكي تبهريهم عليكِ أن تدخليهم لعالم خرافي يفوق قدراتهم غير المحدودة... أما نحن فمثقلون بالحدود... ولذلك إبهارنا يأتي بأشياء أقل.. لا بمصارعة الوحوش، ولكن بتلقي قنابل الغاز... وليس بأمير سندريلا، ولكن بزميل العمل... وليس برحلة حول العالم في ثمانين يوما... لكن رحلة لثماني محافظات في عام كامل!

وضعت نفسي على الطريق..

كان معي «سيف» و«صفي».. إذ رغبا هما الآخران في تصوير الرحلة. كان من المفترض أن يستقبلنا صديق في الشرقية ليحكي لنا عن قريته، لكنه اعتذر... ولم نُلْغِ الرحلة ولا غيرنا المسار... ركبنا القطار تاركين أنفسنا للطريق... فأهدانا الله حكاية على الطريق[1]. لكن الطريق لم يسمح لنا بمساحة معايشة حقيقية مع الناس... هو سمح بمغامرة... لكنه لم يسمح ببوح.... دلنا الناس على سيدة ألمانية لها قصة غريبة، وتعيش في بلد اسمه الحسينية على حدود الشرقية... قطعنا لها مسافة طويلة.. وحين وصلنا.. وجدنا بيتها على مساحة

---

(١) حكاية «هيلجا» سيدة ألمانية فرت من الحرب العالمية الثانية إلى مصر. تزوجت رجلا مصريا، وعاشت في إحدى قرى محافظة الشرقية. وصلنا إليها عبر سلسلة طويلة من المصادفات يفضي بعضها إلى الآخر.

أرض زراعية شاسعة.. لا يجاوره من البيوت إلا ثلاثة... طرقنا بابها وطلبنا منها أن تحكي لنا حكايتها... خافت السيدة بالطبع، لكنها أحسنت إلينا كعابري سبيل... أجلستنا في حديقتها وأحضرت لنا أكوابا من العصير وتكلمنا قليلا.. وتبادلنا حديثا ودودا لكنه غير شخصي... وحين هممنا بالانصراف، أكرمتنا مرة أخرى وطلبت من السائق أن يقلنا لمدخل البلد البعيد. وانصرفنا نشاوى - على الرغم من أن التعارف لم يكن عميقا كما تمنينا - ولكن لأننا من الممكن أن نثق بالطريق...

هناك مساحة من المعرفة تظل مجهولة بيننا وبين الآخرين لحين أن ندخل بيوتهم.. البيوت هي حكاية التفاصيل.

تعلمت من تجربة هيلجا أنه عليَّ أن أفاضل ما بين حكاية الطريق وحكاية البيت... حكاية الطريق هي الصدفة والمغامرة... أما حكاية البيت فهي حكاية الثقة والحميمية. لذلك تجدينني بدأت الاعتماد في تجاربي اللاحقة على علاقاتي الاجتماعية القائمة بالفعل... أقاربي أو أصدقائي وأصدقاء أصدقائي في المحافظات المختلفة... وتفاجأتُ يا مروة بالسعادة والترحاب اللذين كان يبديها أصدقائي حين أطلب منهم أن يكونوا أدلتي للمكان الغريب. أغلب هؤلاء يعيشون الآن بالقاهرة لأغراض الدراسة أو العمل... لكنهم كانوا يقتطعون من وقتهم وأشغالهم أسبوعا لاصطحابي إلى أماكنهم... وكانوا دائمي الشكر لي على أنني كنت سببا في عودتهم لأماكنهم أو لذاكرتهم.

حدث هذا أيضا مع أبي... حين طلبت منه أن أذهب لبلده للمرة الأولى في حياتي...

كيف نعيش مع أحد يا مروة، ونحن نجهل كل شيء عن مكانه؟ كيف لم يهتم أبي بأن يُهدينا طفولته؟ وكيف ظننت كل هذا العمر أنه آتٍ من هنا.. من المدينة؟ وكيف يمكن أن يكون أبي من مكان، وأنا من مكان آخر، ويتشكل وعينا وقيمنا في الحياة بناء على أطر مختلفة... زمنا ومكانا، وكيف نظن أننا نجتث جذورنا بالبعد؟

ذهبت لبلد أبي وأقمت ببيت أحد أبناء عمومته... لم أكن أعرفهم من قبل... لكن ميراث القرابة كفل لي الكثير من الترحاب...

وكنت لا أعرف -لم أزل- عن أي الحكايات أبحث... كنت فقط أريد أن أقيم بينهم، وأن أرى الحياة من زاوية لم تعتدها عيناي... لم أكن أسألهم عن أي شيء... صمتي سمح لهم بالاجتهاد... فقضينا يومنا الأول نزور الأقارب... ويومنا الثاني ما بين الحقول... ثم طلبت منهم أن أتعلم الخبيز.. ثم الزراعة.. ثم أغاني الأفراح... لم تكن تلك حياتهم حتى وإن كانوا أبناء الريف... فصرنا نجرب معا أشياء للمرة الأولى... كانت تجربة مفرحة... لكن عند الكتابة الوضع يختلف.. لأنني لم أسافر لأكون السائحة التي تجرب كيف يعيش المحليون... وجدتني أبحث عن المعنى من وراء التجربة... ماذا تكشف لي عن نفسي ومكاني والحياة؟ كان الحوار دائرا بيني وبين نفسي طوال الرحلة... أرى أشياء، فأتذكر أشياء أخرى... وأجد إجابات عن أسئلة في مكان، سألها آخرون في مكان آخر... وتستجد أسئلة عليَّ أنا... وتيقنت أنني لا أسعى وراء كتابة تفاصيل رحلة ما... ولا أن أكون عين قارئ في مكان ما فأصفه... كنت أكتب من وحي الأماكن... من وحي رحلتي في مصر التي كشفت لي أجزاء مني ومن مكاني لم أكن أعرفها. وفهمت.. لماذا يبعث الناس بالبطاقات البريدية

من بلـد لبلد... هم يقولون للقريبين منهـم: «تذكرناكم في البعد»... وأنا كنت أتذكر الناس في السفر فأكتب لهم الرسائل... رسائل تتصل بهـم.. ربـما لأني مـررت بتجربة تشـبه تجاربهم.. أو أننـي كنت أكمل حوارا سابقا بيننا... أو أجيب عن سؤالهم أو أهدئ حيرتهم.

و الرسـائل كـما تتصل بهـم، فهي تتصل بي أنا الأخـرى... فلي حياة تمشي بموازاة السـفر تثقلني أو تملؤني أسئلة ... وحين أسافر لا أتخلص منـي.. ولكـن أراجعني... أراجـع أفكارا وصـورا عن الـذات وأولد مني... فكأن السـفر بمعناه المستمد من السـفور والكشـف كان كشفا لي.. بعلاقتي بالماضي والمستقبل وبمكاني وبلدي ومن حولي... كان أنا.

و كما كتبت من وحي المكان، فإني قد كتبت من وحـي الزمن.. لأن هـذا العـام ٢٠١٣ لم يمر عاديا على مـصر... ولم أمنع نفسي من التأثر بلحظة بعينها... فكل هذا أنا، وكل هذا إدراكي عن مصر.

* * *

حين زرت بلد أبي.. اكتشفت للمرة الأولى أنني ورثت المدينة...

نحن لا نولي اهتماما بإرثنا من حكايات أهلنا وجدودنا... نظن أننا نـرث ملامحهم فقط.. ولا نعرف أننا نرث حكاياتهم بشـكل مباشر.. ولا نقضي وقتا نتدبر فيه حكمة القدر التي رتبت لنا أن نأتي هنا وليس هناك... ولم ننتبه.. كيف خلق الله هنا وخلق هناك.

هل نستطيع أن ننفصل عن إرث أماكننا يا مروة؟

يخلـق الله لنـا جبـلا أو بحـرا أو صحـراء، فيعيـد التاريـخ ترتيب حكايتـه تبعا للجغرافيا... تشـق الحكومة طريقا مـا بين مكان وآخر،

فتتغير ثقافة المكان، يأتي الغريب من البحر أو يحل عبر المسير بواحة، فتنفتح أو تنغلق له. يقام جامع أو كنيسة أو نادٍ أو جامعة، فتتشكل علاقتنا -حبا أو نفورا- بالمكان.. فتنبت لنا الجذور أو تُجتث...

كنت في سيناء حين تزوج حسنٌ عليَّةَ... لم يكونا من أهل كاترين لكنهما اختاراها لتكون مدينتهما... جاءا يحتفلان معنا ويشاركانا حلمهما ببيتهما... قالت علية إنها كانت تتمنى لو تزرع في حديقتها شجرة توت... لكن الأهالي نصحوها ألا تفعل... لأن أشجار التوت شحيحة في كاترين... وتقتضي تقاليد المكان أن من تنبت في حديقته شجرة تكون ملكا عاما للجيران... ساعتها.. سيدخل أولاد الجيران إلى حديقتك دون حرج، ويفقد بيتك خصوصيته... حتى حكايات الشجر نرثها يا مروة... ولا أعرف.. كيف إزاء ثقل هذا الإرث يمكننا أن نحكم على أحد أو مجموعة دون الالتفات إلى السياق الذي جاءوا منه... إن كان شيئا بسيطا -كاتساع أو ضيق الأماكن- يؤثر فينا وفي علاقاتنا مع الأشياء.

هل مصر بلد واحد، أم إنها عدة بلاد؟

لم أشعر - يا مروة - أننا بلد واحد بقدر ما شعرت أننا نعيش في نظام واحد... أعني أن نقطة التحول في حياة كل الشباب، في كل المحافظات التي زرت، كانت الثانوية العامة... حجر العثرة الذي عليه سقطوا... ثم الفرص القليلة للعمل وللأنشطة الثقافية في كل المحافظات باستثناء -ليس كاملا- للقاهرة... وعموم الشكوى من الانفلات الأمني بعد الثورة. لكنني أظن أننا «كمصريين» لا يمكن أن

نتكلم عنا كإنسان واحد... أعني.. لسنا كلنا على ذات درجة المحافظة على سبيل المثال... في النوبة كانت العائلة كلها تنام في الصيف في باحة الدار المكشوفة على السماء... في أسيوط كانت النساء تأكل في غرفة والرجال في أخرى... في سيوة قلما تخرج النساء للطريق... في سيناء تخرج النساء للرعي يوما بطوله... كل ذلك بالتأكيد محكوم بتجربتي، وربما تكون هناك جوانب أخرى أجهلها... لكن جل ما أعرفه الآن... أننا نعيش أزمنة مختلفة داخل نفس البلد... بلا تفضيل لأحدها على الآخر... وأنا الآن أكتب لكِ، أدرك حجم الاختلاف ما بين المركز والأطراف في نمط الحياة وقيمها الحاكمة. ويغدو - من قبيل الجهل - أن نتكلم وكأننا نملك إدراكا واحدا عن مصر أو عن الدين أو عن الغد.. لكنَّ هناك حدودا...

زيارتي في مصر - يا مروة - علمتني أن أفهم الحدود في الإسلام... وعلمتني أن أفهم القيم الحاكمة للإنسانية وللأخلاق... فكما أن صورنا عن الأشياء تختلف، فهناك حدود لا ينبغي أن نصطدم بها في اختلافنا... كحد الدم.. أو الظلم أو التشنيع أو ترويع الآمنين أو إهانة الكرامة أو الكذب أو خيانة الأمانة. تلك دروس تعلمناها في المدرسة في المرحلة الابتدائية، لكننا فشلنا فيها في الحياة... لأنها ربما.. لم تكن أصيلة فينا... أو لأننا تعلمناها بمعزل عن الحياة الحقيقية.

ها هي مساحة السياسة تشدني إليها مرة أخرى بعدما حاولت الابتعاد... وأنا أكتب إليكِ الآن.. أصُفُّ على امتداد ذاكرتي كل من قابلت في طريقي... عمو أشرف وطنط هند.. جدو صلاح

وطنط زوزو.. عم جابر وعبد الرحمن وحامد وسعد وإيمان وتيتة توحة... عمو عوني وطنط هدى وشيري وكريستين وتيتة فلة... عم عودة وسلمى ومحمد... رُحيّم وأمه ويوسف.. الحاجة صفية وعم نميري... يمنى ونجلاء وإسراء... صفي ومهند... منهم الفلول ومنهم الإخوان.. منهم جماعة إسلامية ومنهم مسيحيون.. منهم بدو وأمازيغ ونوبيون.. ومنهم من هم مثلنا... لا انتماء معينا يميزهم... كل هؤلاء: زرت بيوتهم.. أكلت معهم.. نمت عند بعض منهم.. تشاركت حكاياتهم وزرت أماكنهم المفضلة... هل أصدق أن يقتلوني، أو أن يقتل بعضهم بعضا؟ لن يفعلوا.... الشر مخلوق كالخير نعم... الملائكة تنبأت لنا أن نسفك الدماء ويقتل بعضنا بعضا... لكن الله قال: إني أعلم ما لا تعلمون... وعلَّم الله آدم... هل يوحي لنا الله بأن العلم ربما ينقذنا من سفك الدماء؛ علمنا به وببعضنا البعض؟ بإرثنا من الحكاية والمكان والبحر والشجر والطريق والكون؟ هل عندها سنعي شيئا عن أنفسنا وعن بعضنا البعض؛ شيئا يحمينا من شرورنا الكامنة فينا ويخلق لنا مساحة أرحب للحياة؟

* * *

رحلتي - يا مروة - خلقت مصر كبيرة داخلي... لم أستطع أن أكتبها لأنها أثقلتني... لكنني كتبت من وحيها.. لأنها إرثي كما أني إرثها.. والكشف في السفر -عنها وعني- هو كشف واحد.

نسمة

أغسطس ٢٠١٣

١

إرث الحكاية...



كفر الصهبي (القليوبية) - القاهرة
أكتوبر- ديسمبر ٢٠١٢

«كانت الفكرة الوحيدة التي تتكرر بداخلي عندها.. أن الحياة تحدث... هي فقط تحدث... كنقاط ماء انفلتت من صدأ ماسورة قديمة إلى الطريق... فنبت من بين شقوق الحجر عود أخضر... العود يكبر وينمو ويصارع ويموت... هل تلك هي الحكاية.. أم إن الحكاية هي التي لم تروَ قط... وهي التي تحكي.. لماذا انولد... وكيف حدث الصدأ.. ولم.. وأي مصادفة أتت بالحجر.. وما علاقته بالحجر... وكيف أنه عاش مقيدا للأرض... بينما كانت غيمة تعبر السماء ولا توليه نظرة متأنية مع البعد؟

وهل تلك الحكاية إذا ما انحكت... هي حكاية العود الأخضر، أم إنها حكاية الراوي الذي رأى.. ففسر؟

وهل حكايتي هي خط مستقيم، أم خط يدور... يرى الماضي محاذيا له، فينقلب عليه... يصير ردة فعل لماضيه... ثم يهدأ.. يعود.. يحاول أن يفسر... يكتشف أنه ورث الحكاية... يذهب أبعد.. لزمن لم يعشه.. ورثه عن أجداده... فيجد أن أجداده ورثوا العالم.. فيذهب للعالم... يراقب حكايته الكبيرة والصغيرة.. فقط ليفسر حكايته هو... ليحكيها... حتى يوجد... يتحقق... ويجد معنى كافيا في انفلات الماء من الصدأ... وفي غيمة تمر... وحجر تشقق للحياة».

حبيبتي مريم..

لم يحضرني سوى اسمك اليوم... كان هو الصوت الوحيد الذي تردد داخلي وأنا أقف مع نعمة أمام الفرن...

منذ الأمس.. كفت هبة عن الاندهاش من كل ما أقوله لها... لذلك حين طلبت منها أن أتعلم الخبيز.. لم تعلق.... أخذتني إلى منزل نعمة.... مشينا الطريق الترابي إلى منازل العرب... على الرغم من أن المسافة ليست بعيدة، فإن الشمس مددت الطريق... صار أطول وخلا من سالكيه... طرقنا الباب وفتحت نعمة.... عيناها تعرفت إلى هبة.. وتساءلت في صمت عني... فهمتْ أنني واحدة من الأقارب.. بنت عم هبة ربما... وأنني جئت في زيارة قصيرة، وأنني أريد أن أتعلم الخبيز.

نعمة سمراء نحيفة... عيناها سوداوان صاخبتان... وصمتها مساحة. تتركها بينها وبين الآخرين... لم تكن كبقية نساء الكفر اللاتي قابلتهن.. كان بها اعتداد وقوة.. وكانت تلف عنقها بعقد من الخرز الأحمر القاني.. أشعر أنها هي من صنعته... المشبك الصغير في آخره قال ذلك. حتى بيتها... كان مرتبا وأقل ازدحاما وألوانا من أغلب البيوت هنا.

سألناها: متى تنوين الخبيز؟ واتفقنا معها على أن نأتي عصر اليوم التالي إلى الفرن.

كان الفرن في ظهر الدار... لم أكن قد رأيت من قبل فرنا طينيا... رأيته يومها.... بناء طينيا مرتفعا عن الأرض بمقدار نصف قامة...

لا أعـرف إن كان هنـاك فـرن آخر في الجـوار، لكني لا أظـن... بدا لي أن الفـرن يُوقَـد في أيام بعينها... وأن الخبيز يكـون وفقا لترتيب معين بين نسـاء العـرب... عرفت هذا من السـت ليلى التـي كانت تأتي كل حين لترى إن كنا قد انتهينا أم لا.. ثم أحضرت عجينها وجلست معنا تنتظر... ظلت النساء تتوافدن علينا... يسلمن على بعضهن البعض... ويرون «الخوجاية» التي جاءت تتعلم الخبز من نساء الكفر.

لم أكـن وحـدي الخوجايـة هنـا... كانـت هبـة أيضـا خوجايـة بالنسـبة إليهن.... ربما كانت هبة أكثر.. لأن نسـاء الكفر يعرفن قدر أبيها هنا.

كان شـكلي مهلهلا يا مريم ! واسـتحققت عن جد لقب خوجاية الذي لم أكنه يوما.

رفضـت طنط صفـاء من البدايـة أن أخرج من الفيـلا بالجلابية.. قلت لها إنني سـأحتاجها في الخبيز... لكنها اقترحت أن أرتدي ثيابي العاديـة، وأن أحمـل الجلابية معي لأرتديها فوق ثيـابي وقت الخبيز... وقد كان.... كنت أجلس وسـط النسـوة أمام الفرن.. أرتدي جلبابا مزركشـا.. وحجابـا مزركشـا... وشـنطة طويلة تتدلى مـن كتفي إلى خصري.. وحذاء رياضيا.

لم يكـن ما يعنيني أنني بدوت «غير مرتبـة» ... ولكن أنني بدوت «مـش مـن هنـا»... «هنا» يـا مريم كان بلـد جـدي وأبي.... أنت لن تحملي اسـم عائلتي... أتمنى لك أن تكـون لأبيك عائلة لم تزل متصلة بجذورهـا؛ حتى تشـعري بما شـعرت به حين مشـيت للمـرة الأولى

منذ شهرين مع أبي هنا... وأنا أرى اسم العيلة مكتوبا على حوائط البيوت... على مدخل البلد... على الجسور الصغيرة التي تعبر قناة أو على مسجد القرية.... أنا لا أعرف من البيوت هنا سوى القليل.. لكنَّ ثمة شعورا بالألفة يخلقه الاسم... يحمل لي جواز مرور لكل البيوت هنا....

البلد لم يكن بعيدا عن القاهرة بأكثر من ساعة ونصف... بيوت العرب لم تكن تبعد عن بيت عمو أشرف وطنط صفاء سوى عشر دقائق أو أقل.... لكني هنا.. وسط النسوة أمام الفرن... لمحت غربتي التي لم أشعر بها -بهذه الكثافة- في أوروبا.

كان بيني وبين الفرن ما هو أبعد من طول أعواد الذرة التي ندفع بطولها نحو الفرن لتأكلها النار... كان بيني وبينه هجرة عائلة وتغير عالم... والكثير من الغربة...

الغروب غياب شمس... صار يطلق على أي غياب.. الغروب والغريب والغربة... أفول شمس ومجهول قادم ووحدة. هل كان أجدادنا على هذه الدرجة من الحكمة؛ بحيث توقعوا أن تأتينا كل تلك الأشياء من مكان واحد.. من الغرب؟

توقعت نعمة أنني لن أصمد أمام حرارة الفرن... حين جلست أمامه فهمت سر اللون الأسمر الملفوح لنعمة وهند ابنتها... كانت حرارته قوية لكنها كانت محتملة....

إلى يميني تجلس هند... تغذي الفرن بأعواد الذرة الطويلة... ومن آن لآخر تُدخِل في فتحة الفرن عود ذرة مبتلا.. لتمسح الفرن

بالماء وتمحو عنه الغبرة. في يديها «المطرحة».. عليها بعض الدقيق الذي يحول دون التصاق العجين بها. إلى يساري نعمة... أمامها قدر العجين... أناولها المطرحة فتضع عليها قطعة من العجين... تعلمني هند كيف أفرد العجين بحيث يملأ المطرحة، ثم أطرحه داخل الفرن.

لو كنتِ هنا يا مريم.. لكنتِ عرفت أن هناك عضلات بجسدك لم تستخدميها من قبل! الحركة ليست صعبة، لكنها تحتاج لتوافق ما بين حركة ذراعيك وكتفك... ناهيك عن طرح الرغيف داخل الفرن... يكفي أن أقول لك إنني كنت أتعامل مع العجين ككرة التنس... ألقيه فيطير داخل الفرن وقد انقسم نصفين.... تضحك ست ليلى وتقول: «عِفيتِ عَلَيَّه».

خفت أن أهدر مزيدا من العجين لنعمة... فتركت مكاني لهبة لتجرب هي الأخرى شيئا من هذا....

كنا ستا من النسوة نجلس داخل الكوخ.. نعمة وأمها وهند ابنتها.. ست ليلى وأنا وهبة... قالت لي ست ليلى: «لو قعدتي يوم بطوله قدام الفرن وخدتي من كل واحدة بتخبز رغيفين بوظتيهم... حتلاقيكي في آخر اليوم مِتعلِمَة».

ابتسمتُ في حرج...

هند ونعمة بدلتا أماكنهما... صارت نعمة أمام الفرن.. وهند تناولها العجين...

سألت نعمة: «هي الناس كلها لما بتتعلم، بتبوظ العيش زيي كده؟».

بابتسامة حيية وصوت هادئ ردت: «أمال ايه؟ كلنا كنا كده».

صمت أفكر.. ثم قلت: «إنتي مين علمك الخبيز يا نعمة؟».

ضحكتْ بخجل ونظرت نحو أمها التي ابتسمت بدورها... قالت: «أمي.... بس إحنا كنا عيال صغيرين بنلعب بأجراص الطين... نمثل إنها عيش ونمثل إننا بنرميها في الفرن... فلما جينا نتعلم لقينا نفسنا متعلمين».

لحظتها يا مريم.. لحظتها فقط... حضورك اكتمل بداخلي....

فكرت أننا نحتاج.. دوما سوف نحتاج... أن نفعل شيئا معا.... أن تكون لنا طقوس تجمعنا.... أن نفعل شيئا أنقله لك... تساعدينني فيه... شيئا يجبر الحياة ما بيننا فلا تنكسر بالزمن... شيئا كالماء الذي ترشه نعمة على العجين كلما تشقق.. فيلتئم.

أدخر لكِ يا مريم كنزا من الحكايات عن زمن لم تَخْبُريه.. لكنك سترِثينَه كملامحك.. فأنا - يا حبيبتي - لا أعرف شيئا كالحكاية يقربني لكِ.

نسمة

عزيزي جدو سلامة..

لا أعـرف إن كانـت روحـك تعلم بوجـودي أم لا... مُـتَّ أنت قبـل مجيئـي إلى العالم بتسـع سـنوات... لم ترَ من أحفادك سـوى أحمد أخي... شكرا للقدر الذي أمهلك أن تراه أربعين يوما بعد ولادته... لابـد أنـك كنت فرحـا به خاصة أنه جـاء ذكرا... لا أعـرف إن كنتَ قد شـعرت ببعض الاطمئنان أنه امتداد لك أم لا... لو كنتُ مكانك لكنت شـعرت بالامتنان والخوف... مـن أن الحكاية التي بدأتها يوما ما سوف تستمر...

لـو كنـت تسـمعني الآن.. أحـب أن أُعلِمـك بـأن الحكايـة استمرت... بعد أحمد جاءت نهى ثم أنا... جئتُ مصادفة يا جدو ولم أرك... أنت لي على مدار عمري الماضي.. اسـم على ورقة الامتحان.. أو في المعامـلات الرسـمية التي تتطلب اسـما رباعيـا... كنتَ كذلك صـورة معلقـة في بيتكـم... أو في صور قليلة في الصنـدوق القديم في شـيفونيرة أمـي... يقولـون إنك كنت جميـلا... كلهـم يقولون ذلك حتـى أهل البلد حين زرتهـم قالوا ذلك.. صدقتهـم حتى وإن كانت صـورك كلها لا تبين.. لكنـي أعرف أن أبي ورث عينيك وملامحك.. أحمـد أيضا.. عيناه خـضراوان.. الوحيد فينا... لذا أظنك كنت جميلا كما يقولون.

ربـما كنتَ سـمعت صوتي مـرة أو مرات لكن لم تميـزه... حين كنا نمـر بقبرك على الطريق... لم نكـن نمر بقبرك بالذات... لكن كنا نمر

مصادفـة عـلى الطريق بالمقابر عـلى أطراف مدينة نصر..يشـير أبي لها مجتمعـة ويقول: «اقروا الفاتحة على روح جدكم سـلامة» ... فنقرؤها خجلا منه... ثم نعود بعدها لما كنا نقول.

لماذا لم تدفن بالبلد يا جدو؟ ألأنك مُتَّ على عجل في ذلك اليوم فلم تُمِلِ وصيتك لأحد؟

حين صحبني محمد في رمضان الماضي للمدافن في البلد... أشـار لقـبر جده وقال: «هنا جدو حامد، وهنا جدو سـالم...»، وظل يشـير نحو الشـواهد ويعين كلّا باسـمه.... طفرت الدموع بعيني فجأة مع أني لم أرَ أيـا منهم مـن قبل.... لا أعرف... ربما شـعرت أنهم قريبون جدا؛ بحيـث يكلمهم محمد ويعرفني إليهـم... كأنهم هنا... شـعرت بثقل حضورهم فبكيت...

لم تكـن وسـطهم في ذلـك اليـوم... قبـور المدينة تختلـف يا جدو عـن مدافـن البلد.... قبـور المدينـة ككل شيء هنـا.. لا نملكه... لا نملك لحظة سـكون أو حديث هادئ مع موتانا... هناك غفير يملك مفتاح القبر الذي نخشـى عليه من السرقـة.. ككل شيء هنا أيضا... وهناك مقـرئ والكثير جدا من الناس التي تجد في الموت فرصة كبيرة لابتزازك... زرت قبر جدي لأمي مرة واحدة ولم أعاودها... يزورني في أحلامـي، ومؤخرا فقـط زرت بيتهم القديم الذي مـا عاد لنا... لم أكن أزورهم.. كنت أزورني....

لم أعـرف على مدار عمري من حكاياتك سـوى حكاية موتك... روتهـا لي أمـي... تحبـك وتقول إنك مـت حين كنت تحـاول إحضار

تاكسي ليقلها هي وأبي وأخي الرضيع إلى البيت... كان أبي قد كسرت ساقه قبلها بأيام.. ولم يكن أحد من أبنائك وبناتك حاضرا يومها ليقوم بهذه المهمة عنك... فاضطررت أنت للذهاب.... يقولون شيئا ما عن سائق الباص... يقولون شيئا ما عن أن عينيك خانتاك حين رأيت الضوء الساطع للباص يقترب... لا أقول سوى «ساعة القضى يعمى البصر»، كان قدرك وميعادك.... الله يرحمك يا جدو... أتمنى أن تكون الآن في مكان تحبه... مع عبلة وعايدة وعزة... فرساتك اللاتي تربين في إسطبل بيتك القديم...

أخطر ما في حكايات الطفولة أننا نرثها كمسلمات.. تنتقل لنا وتكون جزءا حميما من تكويننا.. كملامحنا...لا نلاحظها أبدا وإن كانت دوما متشبثة بنا وتكبر تحت جلودنا...

كانت حكايتك مثبتة بإحكام تحت جلدي... الرجل الطيب الذي مات... لم تكن هناك لتعطيني حكاية بديلة... هل كنت تهتم؟ هل كنت تروي حكايتك بشكل مختلف يسمح لي أن أرى حياتك كما تراها أنت؟ نحن أسرى الحكاية التي تُروى، وأسرى الراوي، وأسرى أنفسنا حين نروي.... هل أهتم بأن أروي حكايتي؟ اروِ حكايتك عليَّ لكي أفهم... اروِ حكايتي أيضا لكي أفهم...

رمضان الماضي كانت ذكرى عمو حامد... ابن أخيك.. في كل سنة... يذهب أبي للبلد في ذكراه وحيدا ليعزي أبناءه.. عمو أشرف وآخرين... أنا لم أذهب للبلد من قبل يا جدو.. لكنني قررت يومها الذهاب معه... ليس لأي سبب سوى أنني أردت أن أكتب...

فظننت أن زيارتي هناك قد تساعدني على أن أكتب عن الريف في مصر... قدرت أن الإفطار في رمضان مع عائلة عمو أشرف قد يكون تعارفا لطيفا يسمح لي أن أذهب إليهم مجددا كي أكتب عن المكان....

فرح أبي حين قلت له إنني سآتي معه... قدرت أن البلد ربما يكون أكثر محافظة من هنا... فارتديت تنورة بيضاء وقميصا طويلا واسعا... استغرب أبي قليلا حين رآني، لكنه لم يقل لي شيئا... ركبنا السيارة وشيئا فشيئا حين خرجنا من زحام القاهرة طلبت منه أن يروي لي عن البلد...

لم تكن حكاية البلد في مجملها سوى حكاية طويلة عنك.

* * *

يتيما كنتَ والأصغر بين إخوتك.. مات أبوك بعد أن زرعك في رحم أمك بشهرين... نحن لا نعرف أبدا أي الأقدار ترتبط بنا... يبدو - يا جدو - أن الزواج قدر كبير... في ليلة واحدة زرع أبوك بذرة لازالت تثمر حتى اليوم....

يتيما وجميلا وصغيرا... هل كانت تنقصك الأسباب لتكون مدللا من الكل؟

لا أعرف إن كان البلد حينها بدا كما رأيته أنا... بالتأكيد اختلف... لا أعرف إن كان الاختلاف فقط اقتصر على البيوت الطينية التي تحولت لأسمنت، أم إن هناك ما هو أكثر... أعرف أن شجرة الجميز في مدرسة أبي قد قطعت... وأن المدرسة نفسها خضعت لإدارة المباني

التعليميـة... فهدمت القديمـة وبنوا نفس المباني المتعـارف عليها الآن للمدارس الحكومية.

الطريـق للمدرسـة تـرابي.. يمر ببيـت عمو حامد ومـزارع الذرة والباميـة والباذنجـان التـي علمنـي محمـد أن أعرفهـم مـن شـكل الأوراق... هنـاك أيضـا الجسر الصغـير في بدايـة البلد الـذي يعلن الدخول لأراضي «عرب الجوايلة»، وهناك شجرة الجميز العتيقة التي لا يعـرف أحـد من زرعها... هـل تعرف أنت؟ هـل يمكن أن تكون أنـت من زرعهـا؟ حتى وإن لم تكـن... أظن أنك أكلـت منها... كل البلد فعل.

يتمك المبكر أورث أبي وأورثني المدينة... كنتَ أنت صغيرا مدللا بـين إخوتك.. لم يكن لك «خلاق» عـلى أعمال الأرض... فبعثوا بك للمدرسة لأنك «فشلت» في الفلاحة.... ربما لذلك تأخر زواجك... دراسـتك - من ناحية - استغرقت زمنا أطول مـن أقرانك... ولأن شـهادتك جعلتـك من خيرة شـباب البلـد.. فلم يكن مناسـبا لك - ربما- إلا أن تخطب صبية متعلمة.

تغيـب - يا جدو - عني تفاصيل حياتك قبل زواجك... أراك في الحكايـة طفلا شـقيا.. ثم أراك رجـلا مهيبا في الثلاثين مـن العمر... يتقـدم لخطبـة واحدة من بنـات عائلته الكبـيرة... لم تكـن نانّا تعيش في البلـد... كان أبوها مهندسـا زراعيـا مقيما في المنيـا.. ولم تكن أنت رأيتها من قبل... رشـحها لك أحد أعمامـك، وكانت قد أنهت لتوها دراسـتها الثانوية.... أذكـر أنا نانّا في حكايتها القليلة لي عن مدرسـة

الراهبـات الإيطاليات بالصعيـد... عن رفض أبيها سـفرها لإيطاليا بعد أن رشحتها المدرسة للذهاب هناك بعد فوزها في مسابقة للرسم.

فهمـت أن الـزواج تـم عـلى عجل.. لأنهـا حين انتقلـت للعيش معك.. عاشت في بيت أسرتك....

ويبدو أنك أحببتها... أحببتها حد أن تبني لها بيتا...

...

أقف أمام البيت... أتأمله....

بيت صغير ذي طابق واحد... لم يزل طينيا...

باحتـه الأماميـة تمتـد لفـدان مـن الأرض... تحوطهـا أشـجار الكازورينـا العاليـة... كانـت الريـح تنكـسر عـلى الأشـجار لتهـب البيت دفئا...

تعـرف يـا جدو... وقت مـا زارتني آيـة صديقتي الفلسـطينية... اصطحبتهـا في جولـة لحي الزمالـك.... لا أعرف إن كنـت تعرفه أم لا... مررنا بجانب الماريوت... كنت أقود السيارة وكانت إلى يميني، وكانت تمطر وصوت فيروز كان يملؤنا.... أشرت لها دون أن ألتفت إلى الطريـق للفنـدق إلى يمينـي... حكيـت لهـا أنه كان قـصرا... بناه الخديوي إسـماعيل لتنزل به أوجيني... ملكة فرنسا التي أحبها... أو هكذا قالوا لنا... كان يريد أن يبهرها... أو لعله كان يريد أن يستبقيها... فبنى لها مدينة باريسـية تناسـب عينيها.... هل أحبها حد أن يؤنسـها بمكان تتعرف إليه، أم إنه أراد أن يقهر إحساسـه بأنه «أقل»... ينتمي لثقافة أقل من ثقافة مستعمريه وآسرته.... فبنى لها قصرا يبهرها وربما يأسرها كذلك؟

قليل من الرجال.. يهدي امرأته بيتا... يغريها به...

البيت ليس منزلا نحل به أو عليه... ليس شقة؛ جزءا نقتطعه من المدينة ونضع له بابا... البيت ليل... مكان نعني به زمنا بالأساس... البيت سكن.. والبيت عودة... والبيت وعد بعمر...

* * *

لم يزل ذكر البيت حيا في ذاكرة أهل البلد... حتى بعدما آلت ملكيته لآخرين... قالوا.. إنه كان البيت الوحيد الذي عرفوه وقتها على الطراز الأوروبي.... وإنك أبرمت وعدا مع كل أهل البلد آنذاك ألا يبني أحدهم أمام بيتك أبدا....

كنت - يا جدو - تهديها ما هو أكثر من البيت... كنت تهديها الأفق الذي طل على شرفتها....

هل كنت تؤنسها أم تستبقيها... الفتاة الصغيرة ذات السبعة عشر التي جاءت من المنيا لتسكنك؟ كانت بنت مدينة.. وكان أبوها يعمل في الوزارة على مقربة من الإنجليز.. كيف شعرت هي حين نزلت أول الأمر بالبلد مع رجل غريب هو جذرها الوحيد بالمكان الغريب؟ ما الذي هَوَّن الغربة يا جدو؟ أسوار البيت التي خلقت لكما حيزا مختلفا عن أهل البلد، أم كونك فارسا جعلك جديرا بها؟ لم أصدق أبي حين قال لي إن ظهر بيتكم كان مخصصا لتربية الخيول... قال لي إنك كنت فارسا... تذهب نهارا لعملك في وزارة الزراعة ببذلة الأفندية.. ثم تعود لتخلعها وترتدي جلبابك وعباءتك وشالك الأبيض... تمتطي

ظهر خيلك وتجوب البلد عند المغيب... هل هانت غربة نّانّا إذن، أم إنها لم تهن قط، أم إنها هانت حين بدأت غربتك أنت؟

*   *   *

هِجرتُك نحو قدرك تمت على مراحل... هِجرتُك للأرض تمت دفعة واحدة....

هل كنت تحب السياسة يا جدو؟ كيف كنت ترى عبد الناصر؟

أعرف أن أبي ناصري... لماذا أشعر بك أهدأ منه؟ ربما كنت تحب عبد الناصر... كنت موظفا حكوميا، وأظن أن غالبية الموظفين والمصريين كانوا يرون فيه حلما آنذاك... لكن الحلم لم يمنع ضيق العيش قط... خاصة بعدما تبنت الحكومة نهجا اشتراكيا خلق طابورا طويلا من موظفي القطاع العام... لست متأكدة من كونهم كان لديهم خطة حقيقية للاستفادة منهم... دعك من هذا... كان الأولاد يكبرون وكانت البلاد تخطو في ثقة نحو الحرب... كان ذلك في ٥٦ يا جدو... انتهى العدوان وسافرت وحدك للسعودية علك تؤمِّن لهم هنا معيشة أرحب.

لن أسألك عن هناك... هل تفيد أمنياتي للماضي يا جدو؟ أتمنى أن يكون الله قد صاحبك في سفرك وهَوَّنَه... أعرف أنك عدت بعدها بعامين، لكنك لم تعد قط.. أعني.. لم تعد للبيت.. استأجرتم شقة صغيرة بالمدينة الأقرب لكم في شبين القناطر... فهمت من أبي أنك لجأت لهذا؛ لأنه لم تكن هناك مدرسة ثانوية قريبة للأولاد... فانتقلتم

بضعة كيلومترات للمدينة... بضعة كيلومترات فقط لكنها كانت كافية للبيت الكبير أن يُغلق... وللأرض أن تباع.... ماذا فعلت ـ يا جدو ـ بفرساتك الثلاث؟ فات أبي أن يحكي لي عنهن... شغله الفارس عن الفرس....

تعرف يا جدو... حول هذا الوقت كان أهل النوبة يُهجَّرون من بيوتهم الواسعة على النيل؛ لأن قراهم أغرقها السد.... بنت لهم الحكومة مدنا سكنية في الصحراء.... كبار السن منهم ماتوا قهرا بعد التهجير.... خنقتهم القبور التي وضعتهم فيها الحكومة بعدما أغرقت بيوتهم...

هل كان مرضك حينها بداية اختناق؟

كيف لم يخطر ببالهم أنك فقط أردت العودة... أن الحنين كَلَّ قدميك وروحك فثقلتا؟ التلفزيون لم يكن يناسبك... كنت تعيش الحياة فصرت تشاهدها فقط... نروض الفرس بامتطائها... نروض الفارس بابتعاده عنها.... اللجام الذي وضعته أنت وضعه البلد كله كذلك... كنت تذوي يا جدو.... أراك كما رأيت أبي يوما.... كنا نحتفل بعيد ميلاد واحد من أحفاده في مجمع تجاري كبير لن تعرفه.... تركنا أبي وذهب يبحث عن مكان يشرب فيه شايا... كلمني بعدها بنصف ساعة... قال لي إنه تائه داخل المجمع... سألني أن آتي لآخذه.... بدا يومها صغيرا جدا.. وبدا البناء ضخما وشاهقا ولا رحمة فيه.... هل حين نصل لعمر معين يلفظنا الزمان؟ متى سيكف المكان أن يعرفني ويهيئ نفسه لزوار جدد يخبرونه أفضل مني؟

أرتعد إذ تعبرني الخاطرة.

أصدق أن الله كتب القدر قبل أن يخلقنا جميعا... سبحانه يضع بذور عمر في عمر آخر.... ويرتب الأمر لأجيال قبل أن تأتي بأجيال....

كان أبي مسئولا عن الهجرة الثانية لأسرتكم.. هذه المرة للعاصمة...

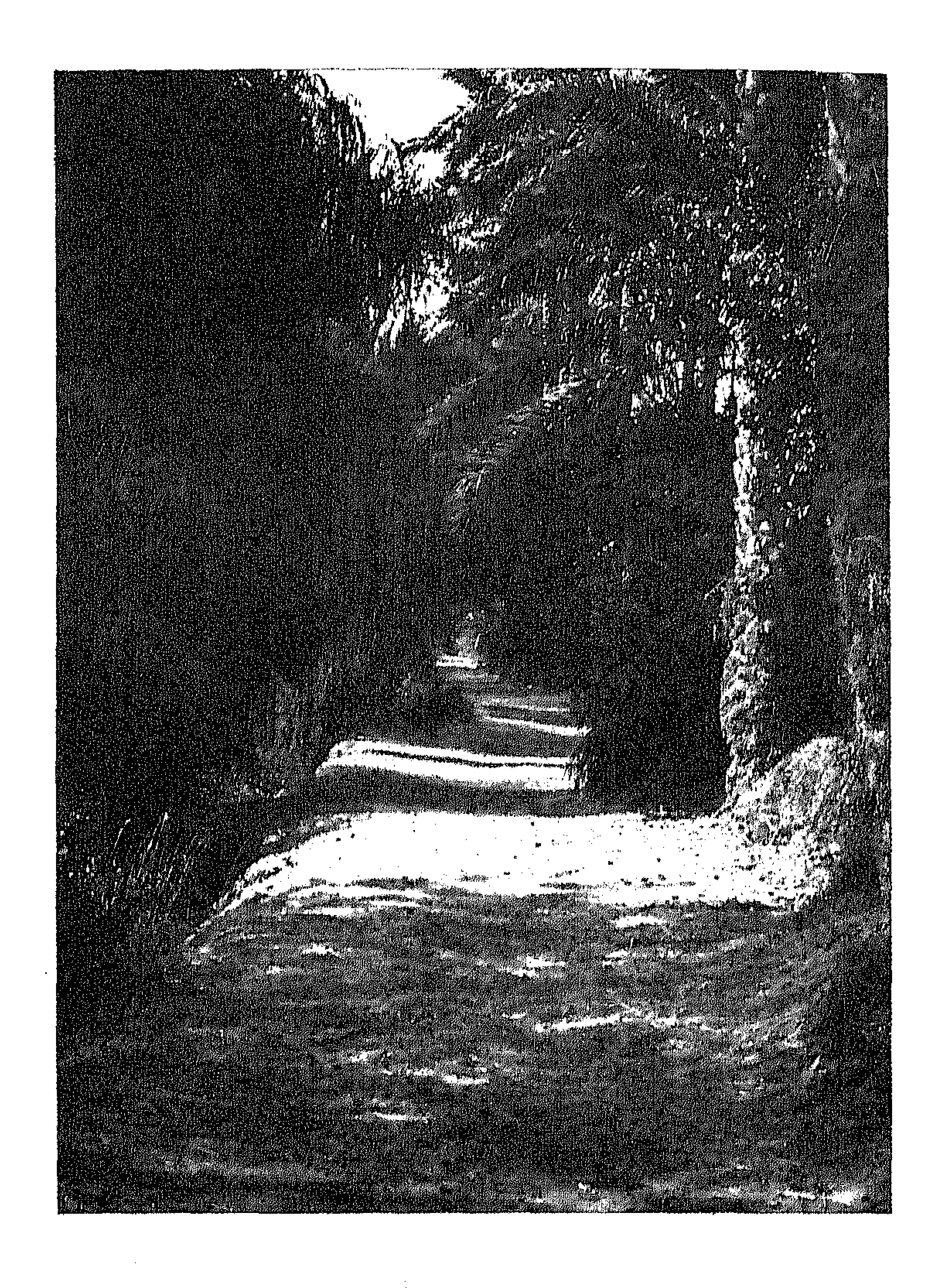
كانت بذور هذا القرار مبدورة من يوم استشهد خاله في حرب ٤٨... قتله الصهاينة... وربته نانّا تهيئة لأن يكون ضابطا في الجيش ليأخذ بثأر خاله... لا أنسى أيضا أن مصر في تلك الآونة وقعت في أسر العسكريين.... صارت أحلام الشباب مرتبطة بالكاب الحربي والنجوم على الأكتاف....

التحق أبي بالكلية الحربية عام ٦٥... وتباعا انتقلتم إلى القاهرة.... سكنت مكانك الأخير بصحراء مدينة نصر... ومت هناك أيضا....

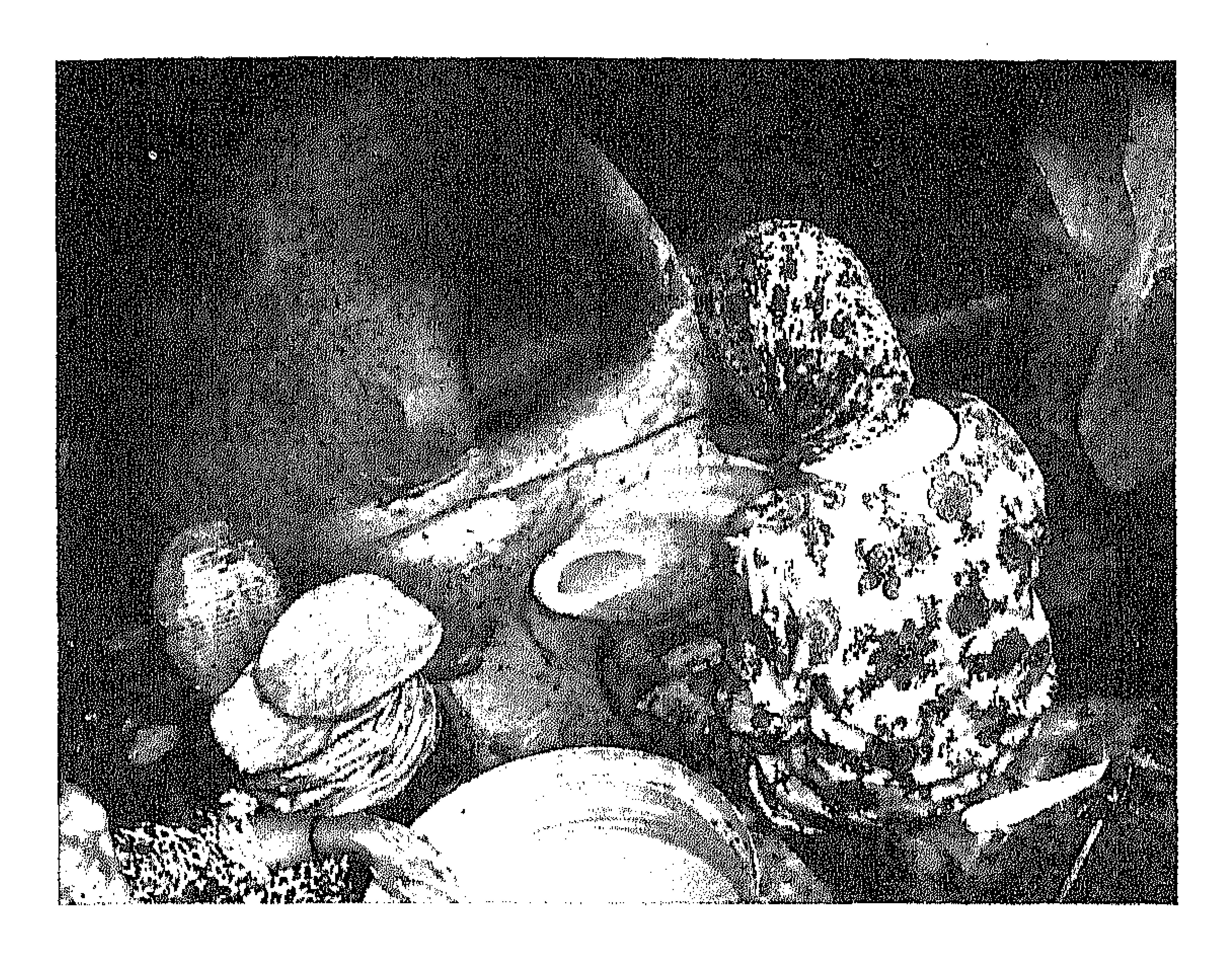
أكتب لك يا جدو لأسأل.... كيف تبدأ الحكاية هنا.. وتنتهي في مكان آخر؟ وكيف تبدأ حكايتي قبلي؟ وماذا أفعل أنا الآن بحكاية مريم التي لم تأتِ بعد، أم إننا جميعا حكاية واحدة موصولة في دائرة.. من أول الزمان لآخره...؟

يا جدو... أورثتني المدينة والصوت الدافئ والصمت.. وحنينا جارفا لبيت لم أسكنه.

نسمة



الطريق لشجرة الجميز



من اليمين للشمال: «هند» ، «الخوجاية» ، «نعمة»



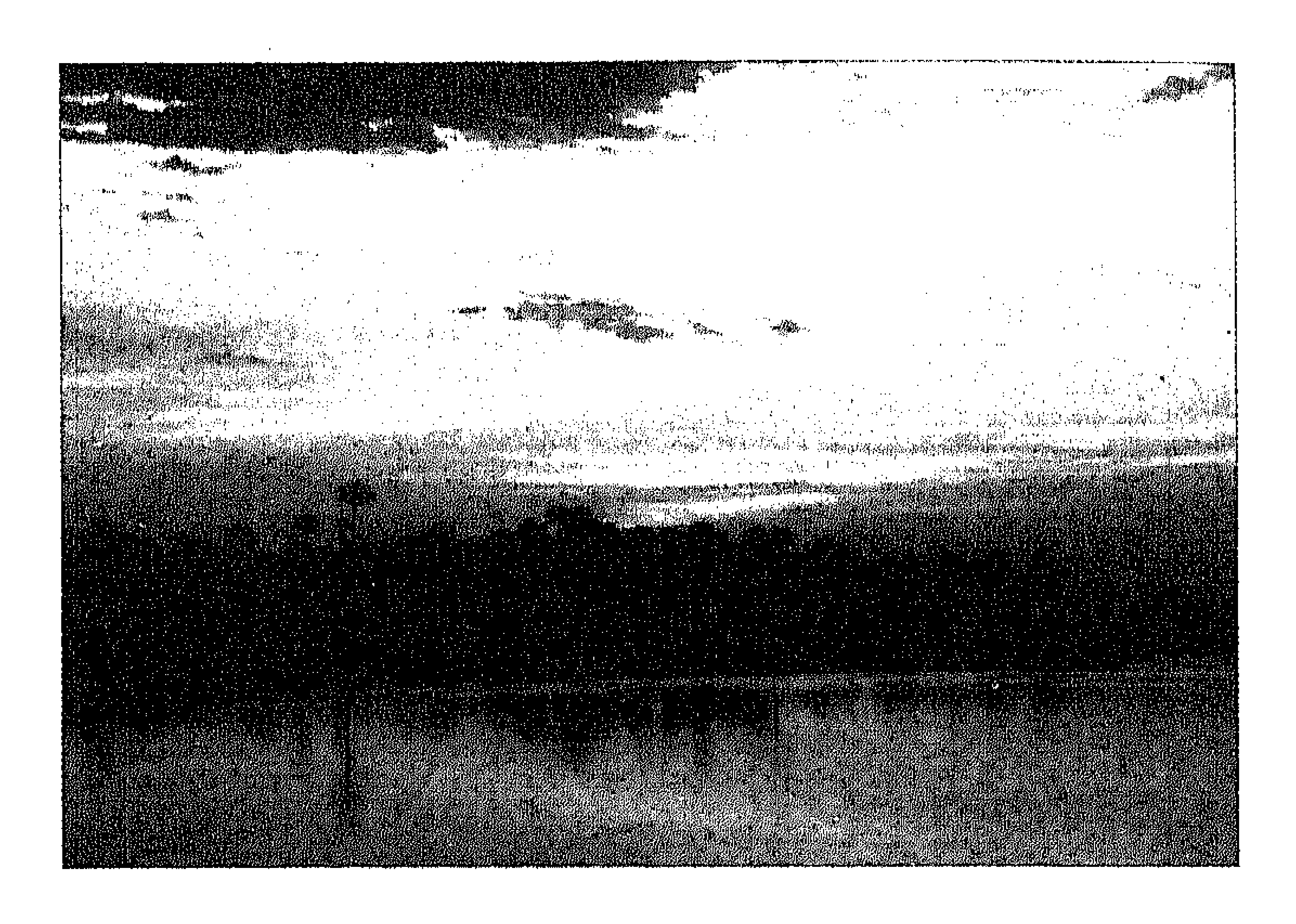
غيط الفراولة



سعادة...

٢

إرث المكان



أسيوط (فبراير- مارس ٢٠١٣)

« كانت الدوامات الصغيرة تُخلَق على صفحة الماء وداخلي.... كان تيار الماء يأتي باندفاعه عميقا من الجنوب... فيواجهه تيار سطحي شمالي معاكس يصنعه الهواء...

بـدا النيـل وكأنه يمشي في عكس اتجاهـه... كأنه في سريانه يا مونيكا.. كان يعكس صورة المكان داخله».

عزيزتي مونيكا..

بالأمس حلمت بك.. لم يكن حلما بالضبط.. لكن وجهك كان حاضرا في نومي... وحين استيقظت فجرا عرفت أن عقلي استدعاكِ لسبب لم أعرفه... ثم عرفته حين كنت أجلس على الدرجات القليلة المؤدية لضفة النهر.. أرقب الشروق وأتابع الدوامات الصغيرة التي تولد على صفحة الماء وداخلي.. وأنا أسمع حكايات المدينة وحكايات الشاطئ الآخر من النيل...

أعرف أنه كان سيسعدك أن تكوني هنا.. أنت مثلي.. تبحثين عن الحكاية.. وتتسلين بتركيب أجزائها الصغيرة على معرفتك بالتاريخ والعالم... لكن اللغة لم تزل عائقا كبيرا أمامك.. كان يسعني أن أكون لغتك.. لكنني لست متأكدة كيف كنتِ ستفسرين الحكاية بعدما أنقلها لك.... أعرف أنني بحاجة لأن أستعين بعالمك كي يفسر عالمي ولو قليلا... كنت سأحب أن أراقب لقاءك بتيتا توحة أو إيمان... ربما كنت حينها سأفهم كيف استوعبَ المكان طبقات من التاريخ لم تكن له... أو ربما هي له مادامت قد حدثت.. لست متأكدة...

كنت أتمنى يا مونيكا أن أحكي معك بدلا من أن أكتب لكِ... لا أعرف أين تستقبلين رسالتي هذه... في بيتك الصغير ببيروت... أم في وطنك فيينا... أم في مكان آخر من العالم.... أتمنى أن تفي لي بوعدك يا عزيزتي بحلقات إذاعية عن مصر... أعرف أن هذا هو الحل الوحيد الذي يضمن لي وقتا أطول معك...

أتذكر رحلتك الماضية لسيناء... أعرف كم كانت مرهقة لكِ... السفر في مصر مرهق للمصريين أنفسهم.. فكيف هو الحال معكِ يا عزيزتي؟ أذكر كيف قضيتِ يوما كاملا في محاولة السفر من شمال لجنوب سيناء.. ثم انتهى بكِ الأمر أن عدتِ للقاهرة، ومنها قطعتِ الرحلة مرة أخرى لسانت كاترين....لكن لا تقلقي... أعدك أن السفر للصعيد أسهل.... هناك دائما قطار... لكن السؤال الأساسي هو: «متى يأتي؟».

جاء القطار يا مونيكا... وحملني نحو أسيوط... لم يكن لديَّ أي توقعات عن المدينة... لا أعرف يا عزيزتي... هل نكف عن التوقعات حين نكبر، أم إن هذا إرث السفر الطويل؟ كنت أتمنى أن يهبني المكان حكايته... تعرفين مثلي كم تتنكر الأماكن لعيني الغريب... لكنني هذه المرة كنت نصف غريبة.. كان معي عبد الرحمن.. وكان يعرف المدينة والقرى المحيطة جيدا.... كان هو جواز مروري للبيوت وللأهالي... وطبعا اضطررنا للكذب... عدة مرات.. بشأن من أكون.... فكنت أستاذته التي تكبره بعشر سنوات مرة، وكنت عمته مرة أخرى... وكلتا الهويتين لم تتناسب قط مع طولي وحجمي وشكل ملابسي.... لكن الناس مرروا لنا كذبتنا الصغيرة بكرم الضيافة... ولعلهم أرجعوا هذا إلى أن «أهل مصر عوايدهم غيرنا»....

مشى القطار محاذيا الترعة الإبراهيمية.. كانت الترعة تتسع كلما صعدنا لأعلى... وكان الأخضر ممتدا والسماء استعادت زرقتها المفتقدة في القاهرة.... كانت الجبال تبدو بعيدة على الجانب الشرقي

للنيـل... قال لي عبد الرحمن إن مدينة أسيوط هي الوحيدة التي تقع بـين جبلين من الـشرق والغرب.. هـذا يجعل مناخها شـديد الحرارة صيفا وشـديد البرودة شـتاء... و إن طباع الناس حادة بفعل المناخ... هل يكفي هذا تفسيرا يا مونيكا لاختلاف حركة التاريخ في المدينة؟ لا أظن... أقول ربما كون المكان محاصرا ما بين جبلين جعل الوصول له أصعب..و بالتـالي احتفظ الأهالي بثقافتهم لعمر أطول دون تغيير... ربما هما الـسببان معا... وربما هي حركة الأقدار التي تشـاء أن تورثنا الحكاية فتكتب لنا أسبابها...

أشعر يا مونيكا أن المدن والبشر هما بوتقتا الزمن... إذ فيهما يحتفظ الزمن بآثار مروره... وإن كان للبشر وجه واحد.. فللمدينة أكثر من وجـه... يحيرني دوما يا عزيزتي، علاقة أوجـه المكان المختلفة ببعضها البعـض.. خاصـة إذا كانت تحيا عـلى التوازي ولم يحـل أحدها مكان الآخر.. أو لم يطمسه تماما...

عرفـت وجه المـكان الأول مع إيـمان... حين جلسـنا معا في آخر الأرض... ما بين حقول القمح والنيل...

لم أكن أعرف إيمان من قبل يا مونيكا.. تعرفين قدر المسافر.. حين يصحبنـا الله في وجوه عباده ويكتب لنا نصيب اللقاء... كان لي معكِ قدر مشابه قبل عامين... وكان لي قدر مع إيمان هناك... كنا في طريقنا «للنخيلـة» فتوقفنا بأحد المراكز، وذهب عبد الرحمن لزيارة سـعد ابن خالتـه... إيـمان زوجة سـعد... أظن أنهـا أصغر مني كثـيرا... حجما وعمـرا.... كنـا نجلس في حجـرة الصالون... سـعد وعبـد الرحمن

وأنـا.... وجلسـت هـي معي لكن من وراء سـتار خفيـف يفصل ما بين جلسـة الرجال والنساء.... ارتبكت كثيرا يا مونيكا ولم أعرف إذا كان مـن الأليق أن أذهـب معها خلف السـتار أم لا... لكنني تقيدت بمقعـدي واسـتحيت أن أغـيره... كنت بنصـف رأسي أتابع حديث الرجال عن السـلاح... وبالنصف الآخـر أتابع حديث إيمان وأختها عـن حياتهـما... عرفـت أنهـما لم تنـزلا إلى القاهـرة من قبـل... وأنهما حتـى غير معتادتين على زيارة أسيوط المدينـة.... ولم أفهم للحظة يا مونيـكا... ماذا يعنـي أن يكون المرء من مكان صغـير؟ ثم فهمت... حـين نزلت أنـا وإيمان للأرض... عبرنا الشـارع الوحيد للسـوق... ودخلنـا وسـط المزارع.... كان الوقت عصرا والشـمس على وشـك الغروب... عبرنا شجرة المانجو الكبيرة، ومشينا في خط مستقيم على الخط المرتفع الذي يفصل بين الزروع.... كانت إيمان تتقدمني وكنت أنقـل قدمـي بحـذر.. وكان القمـح أخضر يصـل لنصـف قامتنا... قطعت لي إيمان سنبلة.... ثم وصلنا لحافة الأرض عند الماء.. وجلسنا تحـت النخيل.... بدا كل ما وراءنا يا عزيزتي أخضر وهادئا... لم يكن ثمة صوت إلا ما خف من حركة السـنابل في الهواء وصوت الماء.... وفي نفسي تساءلت: هل لعالمي القديم وجود حقا؟

الأماكن أيضا قادرة على ضمنا يا مونيكا...

كان النيـل يجـري في نصـف دائـرة... وكان النخيل يـدور حولنا كهـلال... والقمح من ورائـي يتمم الدائرة ويحيطني... شـعرت أن

المكان يحتويني كحضن دافئ.. كضمة قوسين وأنا بينهما كلمة.. كلمة غريبة عن بقية السطر...

كيف تتعامل الأماكن الصغيرة مع الغريب يا مونيكا؟ كيف تراه؟ وكيف لو أن الغريب أتى ليخضع المكان لصورته هو عما ينبغي أن يكون عليه المكان؟ هل الأماكن مثل البشر يا مونيكا... تخضع وتقاوم؟ هل يحمل السطر الكلام الغريب داخله، أم إنه يلفظه خارج النص؟

* * *

أتى الغريب أول الأمر مع الاحتلال...

يُحكى يا عزيزتي فيما يحكى... أن القرى المصرية قديما كان لها أبواب... متى وجد الباب يا عزيزتي بدأت حُرمة المكان....

وأن الحملة الفرنسية حين أتت إلى مصر هدمت الأبواب والأسوار... وينسب لأحد قادة الحملة أنه قال إن الفرنسيين واجهوا مقاومة شعبية في مدن الدلتا.. أما في الجنوب... فقد لاقوا حربا حقيقية...

لم يختلف حظ الإنجليز كثيرا عن الفرنسيين... إذ إن الرواية تقول إن المعسكر الإنجليزي في أسيوط كان دائم التعرض لهجمات القبائل العربية عليه.... مما دفع حكومة الملك فاروق لإقامة أول جامعة في الصعيد في مدينة أسيوط... أمام معسكر الجنود الإنجليز في ١٩٤٩....

لم أجد - يا مونيكا - أي سند مكتوب يؤكد تلك المعلومة... وتعجبت كثيرا أن تفكر السلطة في إقامة جامعة للحد من المقاومة الشعبية للاحتلال... إذ إن الشباب عموما هم وقود المقاومة.... لكن الأهالي توارثوا تلك الرواية... والمحير حقا أن المقر القديم للجامعة أمام الكامب الإنجليزي الذي كان.... فلو صح ما تناقله الناس، فإن «فاروق» وحكومته استخدما الجامعة وشبابها كدرع واقٍ للإنجليز... وحين أفكر بمنطقهم أرى أنهم ربما أرادوا أن يكسروا عزلة المكان ما بين الجبلين بأن يُدخلوا له الغريب.... كان الغريب في هذه الحالة الطلاب والأساتذة المغتربين.. أتوا من محافظات مصر المختلفة ليسكنوا المدينة... مدينة أسيوط... ولعل هناك أسبابا أخرى لكني ألتزم هنا بنقل ما سمعت...

الجامعة في أسيوط هي قلب المدينة يا مونيكا... ولا أعرف كيف كان شكل المدينة قبلها.... عبد الرحمن قال لي إن هناك ألبوم صور للمدينة القديمة في مكتبة المحافظة... ولكني لم أجده حين ذهبت إلى هناك... ولم يبدُ أن العاملين يعرفون شيئا عنه... لكنني لو حاولت أن أرسم لك صورة عن المدينة... فأهم معالمها ستكون القناطر التي بناها الإنجليز وقصورهم... القصور التي شيدها الإقطاع ... سوق القيسارية القديم والجامعة...

رأيت الوجه الثاني للمكان عند الجامعة...

نحن لا نفلت أقدارنا يا مونيكا... وكذلك الأماكن.... والجامعة إن صح وكانت أداة السلطة في مواجهة المقاومة، فإنها ظلت كذلك...

في عام ١٩٥٢، تحولت مصر من الحكم الملكي إلى الحكم الجمهوري.. وفي ١٩٥٤، زج عبد الناصر بالإخوان المسلمين في المعتقل...

مال عبد الناصر للمعسكر الاشتراكي آنذاك... وسيطر الطلبة الشيوعيون على الأنشطة الطلابية في جامعات مصر المختلفة.... ثم مات عبد الناصر وجاء السادات.. فأفرج عن الإخوان المسلمين... عاد طلبة الإخوان للأنشطة الطلابية داخل الجامعات... وكانت الحكومة تقصد بهذا ضبط كفة الميزان ومحاربة الشيوعيين بالإسلاميين.... حكى لي عم جابر تفاصيل تلك المرحلة... قال لي إن الجماعة الإسلامية بدأت في جامعة القاهرة ومنها إلى باقي الجامعات في مصر... بدأت الجماعة الإسلامية في جامعة أسيوط كنشاط طلابي يدعو إلى توفير أماكن للصلاة داخل الجامعة، وتوفير ملابس ملائمة للطالبات المحجبات... لم يكن الحجاب منتشرا في مصر آنذاك... قال لي عبد الرحمن إن الطالبات كن يرتدين التنورات القصيرة في الجامعة... فإذا ما رجعت إلى قريتها ارتدت «الملس»... فهمت أن «الملس» رداء واسع طويل... وتخيلت أنه ربما يشبه العباءة التي نعرفها الآن.....

أتذكرك الآن يا مونيكا حين ذهبنا معا لزيارة جوستافو في منزله فوق الجبل.... أحببت كثيرا الفستان الذي ارتديتهِ ليلتها... ما نلبس - غالبا - هو من نكون... كان فستانك من الصوف الأسود... واسعا قصيرا... به أنوثة ... لو ارتديته أنا لكنت سأتخير حذاء أنعم من الذي لبستِهِ أنتِ.... كان حذاؤك يومها بوت أسود يشبه إلى حد

كبير أحذية تسلق الجبال.... بك يا عزيزتي أنوثة وقوة... ولو كنت رجلا لتحيرت كثيرا فيكِ...

ما نلبس هو - إلى حد كبير- ترجمة لصورتنا عن أنفسنا، أو لصورة مجتمعنا عنا... فمن نكون حين يضمنا ملس وتنورة قصيرة؟

* * *

بدأت الجماعة الإسلامية في جامعة أسيوط... وسط مجموعة من الطلبة المغتربين وبعض أبناء البلد.... كانت مصر تتجه نحو الانفتاح... وكان السادات يستخدم الإسلاميين في مواجهة الطلبة الماركسيين والقوميين في الجامعات.... حكى لي عم جابر عن بعض «الغزوات»... بالطبع كان يمزح في التسمية... الغزوة هنا هي «الخناقة» التي شنتها الجماعة الإسلامية ضد الطلبة الآخرين في الجامعة... مسيحيين كانوا أو شيوعيين..لا يمكننا هنا أن نفصل الدين عن الثقافة.... وإذا كانت الثقافة تميل بشكل أكبر نحو المحافظة وحمية الدم كما في الصعيد؛ فإننا نرث مواجهة أعنف ما بين الفريقيْن.... لكن المواجهة اختلفت كثيرا في حدتها واتجاهها حين وقَّع السادات اتفاقية كامب ديفيد...

في سنوات دراستي في الجامعة... كنا نتعرض لمناقشات دراسية حول كامب ديفيد.... هل كان ينبغي أن ندخل في معاهدة سلام مع إسرائيل، أم لا؟ كانت الكتب الدراسية تصوغ لنا مبررات كامب ديفيد، وكيف أنها أراحت المصريين من هَمٍّ حرب محتملة... وكان

بعض أساتذتنا يقولون إن الهدف من كامب ديفيد هو تحييد مصر عن الصراع العربي الإسرائيلي... وكنت فيما مضى أحسـم الأمر مع نفسي بأنه قرار ككل القرارات لـه مزايا وعيوب... لكنني بعد أن مررت بتجربة الثورة في مصر وما بعدها، فهمت أن كلّا منا يمتلك صورة عن مصر التي يريد... وأن هذا لم يكن حالنا الآن فقط... حتى حين أرجع إلى أشكال مقاومة الاحتلال الإنجليزي، أجد أن المقاومة كانت أوسع كثيرا مما درسناه في كتب التاريخ المدرسية... سعد زغلول فاوض الاستعمار في باريس... الإخوان المسلمون قاوموه بتنشئة الفرد المسلم حينا، وحينا بالسلاح.... كلاهما أراد لمصر الاستقلال... لكن هذه الجملة تخدع كثيرا.. لأننا لم نعرف ما الشكل الحضاري لمصر التي نريد... ولا إلى أي مدى نريد الاستقلال.. وعن من.

أرى الآن اتفاقية كامب ديفيد بذات الطريقة... اتَّفق أو اختلف معها... لكن عرِّف لي أولا أي مصر تريد.....

بالنسبة إلى الجماعة الإسلامية.. لم تكن تلك مصر التي تريد.... تلك الصورة التي دفع السادات ثمنا غاليا لها.... ومن بعده دفعت الجماعة الإسلامية نفسها ثمنا فادحا.. أيضا لها....

❊ ❊ ❊

كان الوجه الثالث الذي رأيته للمدينة... هو وجه عم جابر....

رجل خمسيني... سمرته مشوبة بحمرة... وبملامحه وسامة تزداد حين يضحك... رأيته مرتين... وأحببته في الجلباب الطويل أكثر من

البذلة الإفرنجية السوداء... بالجلباب كان إمام الجامع... بالبذلة كان مدرس اللغة العربية بمدرسة المحافظة.. كان عم جابر من أعضاء الجماعة الإسلامية في أسيوط.. وحين قابلته - يا مونيكا - فهمت كيف يمكن أن تتعطل الحياة...

* * *

قديما.. كانت بعض الجرائم تُعاقب بالتغريب...

يخرج من وقعت عليه العقوبة من قريته... فلا يعود إليها... ينخلع عن أرضه وأهله ويبدأ من جديد في مكان أبعد... كانت طبيعة المجتمعات أكثر قبلية.. وكان تغريب أحدهم يعني خلعه من النسيج الاجتماعي... فيعاقب برفع حماية قبيلته عنه ويترك وحيدا على الطريق... وأنتِ يا عزيزتي تعرفين مثلي... كم يغير فينا الطريق....

و في المكان الجديد... يُعرف الغريب بغربته.... ويتطلبه الأمر كثيرا من الالتزام؛ حتى يقبله المجتمع الجديد ويعطيه أمنه وحمايته..

أعرف أن هذا يستحيل في مدننا الآن... إذ إننا نعيش في اغتراب حتى في بيوتنا... ولن نمانع غالبا أن يعطينا أحدهم فرصة للبداية في مكان أفضل... لكنني أتذكر أنني قابلت يوما جد أحد أصدقائي، وكان ينتمي لتيار سياسي معين في الحقبة الناصرية.... وتمكن من الهرب إلى أمريكا قبل أن يعتقله عبد الناصر... وهناك... نسي.... ذاب في الحياة الجديدة، وحين عاد لم يفكر في العودة لذات انتمائه القديم... لأنه تعرض لفكرة أخرى...

لم أجرب السجن من قبل.. لكن السجن لا يقتلع فكرا... حين ذهبت لزيارة بلد أبي قبل أشهر... وجدتهم قد قطعوا الشجر الكبير بجانب عنبر الداوجن لأنه يسد المدخل إليه.... قطعوا الشجر لكن جذوره تركت في الأرض... وحين سألت قالوا لي إنهم تركوا الجذور حتى يعطوها فرصة حياة من جديد... في أسيوط... قطع محافظ سابق الشجر القديم بشارع الكورنيش حتى يضع عواميد إنارة.... لم يكتفِ بهذا... صب جذور الشجر العتيقة بالأسمنت... حتى يمنع نموها من جديد....

أشعر يا مونيكا أن ما فعلته الدولة في السجون... هو أن صبت جدارا سميكا من الأسمنت على البشر... فلا هي تركتهم يتبنون فكرا آخر... ولا هي اقتلعت أفكارهم....

لم يكن عم جابر من قتلة السادات... ولا أظن ـ يا مونيكا ـ أنه كان قاتلا لأحد...

و لم يكن أعضاء الجماعة الإسلامية هم فقط من تم اعتقالهم... مصلّو الفجر وشباب عاديّون أيضا تم اعتقالهم لشبهة أو لهوى الضباط.

هل أحكي لكِ عن التعذيب كما وصفه لي، أم أحكي لكِ عن مرارة الثأر؟

في الصعيد...تحمل العائلات إرث الدم والعرض... فكيف إن كان ثأرك ليس على أحد بعينه.. إنما على الدولة؟

عبد الرحمن حكى لي أن شارع مديرية الأمن في الصعيد كانت تُقطع عنه الكهرباء عند خروج أحد الضباط الكبار من المديرية يوميا لفترة من الزمن... حتى يحموا الضباط من أن يقتلهم أحد الأهالي.. آخذا بثأره أو ثأر ولده.. أو حتى ثأر زوجته.... ورث جيلي أيضا في القاهرة ما يكفيه من المسلسلات التي تكافح الأخذ بالثأر، وترسخ لمفهوم الدولة واستبسال الشرطة....

مع تزايد العنف في سجون الدولة.. زاد العنف خارجها... بتكفير الحاكم.. وربما بتكفير رعيته أيضا... وبالغ المتطرفون في تطرفهم.. فاستباحوا أموال البنوك على اعتبار أن مصر ديار كفر... حكى لي عبد الرحمن عن سرقة بنك فيصل واحتلال مديرية الأمن سنة ١٩٨١ في أسيوط.. واعتبارها مركزا للخلافة الإسلامية بعد احتلالها...

لجأت الدولة للتصفية الجسدية لأعضاء الجماعة... بينما راجع الكثيرون منهم أفكارهم... وأعلنوا استتابتهم فيها بعد... قُبلت الاستتابة من بعضهم... ولم تُقبل تماما من أهل أسيوط... لأن إرثهم كان أثقل من الآخرين...

* * *

كان وجه المدينة الأخير هو أبراج المراقبة يا مونيكا.... أبراجا بارتفاع أعمدة الإنارة وبنفس كثافتها... تصطف في شوارع المدينة.... من شبابيكها الصغيرة كان يقف الجنود فوق الناس، يراقبونهم...

كان ذلك قبل الثورة...لكن المدينة لم تتداوَ من تاريخها حتى الآن...

* * *

الأماكن مثلنا يا مونيكا... تخضع وتقاوم.

* * *

المكان الصغير الذي احتواني كحضن دافئ، لفظ الغريب الذي أتى ليغيره ويُخضعه...

حين ركبت القطار أول الأمر لأسيوط لم أكن أعرف شيئا عن تاريخ المدينة.. ولم يكن لديَّ شيء لأتوقعه.. وحين حكى لي عبد الرحمن وآخرون جزءهم من الحكاية كنت أسأل: لماذا هنا.. دون بقية الأماكن اتخذ التاريخ صورته تلك؟

وجهك كان حاضرا في نومي... وحين استيقظت.. ذهبت مع عبد الرحمن لمشاهدة شروق يوم الجمعة من ضفة المدينة... كانت الدوامات الصغيرة تُخلق على صفحة الماء وداخلي.... كان تيار الماء يأتي باندفاعه عميقا من الجنوب... فيواجهه تيار سطحي شمالي معاكس يصنعه الهواء...

بدا النيل وكأنه يمشي في عكس اتجاهه... كأنه في سريانه يا مونيكا.. كان يعكس صورة المكان داخله.

نسمة



المدينة المحمولة على الماء



الكفوف...

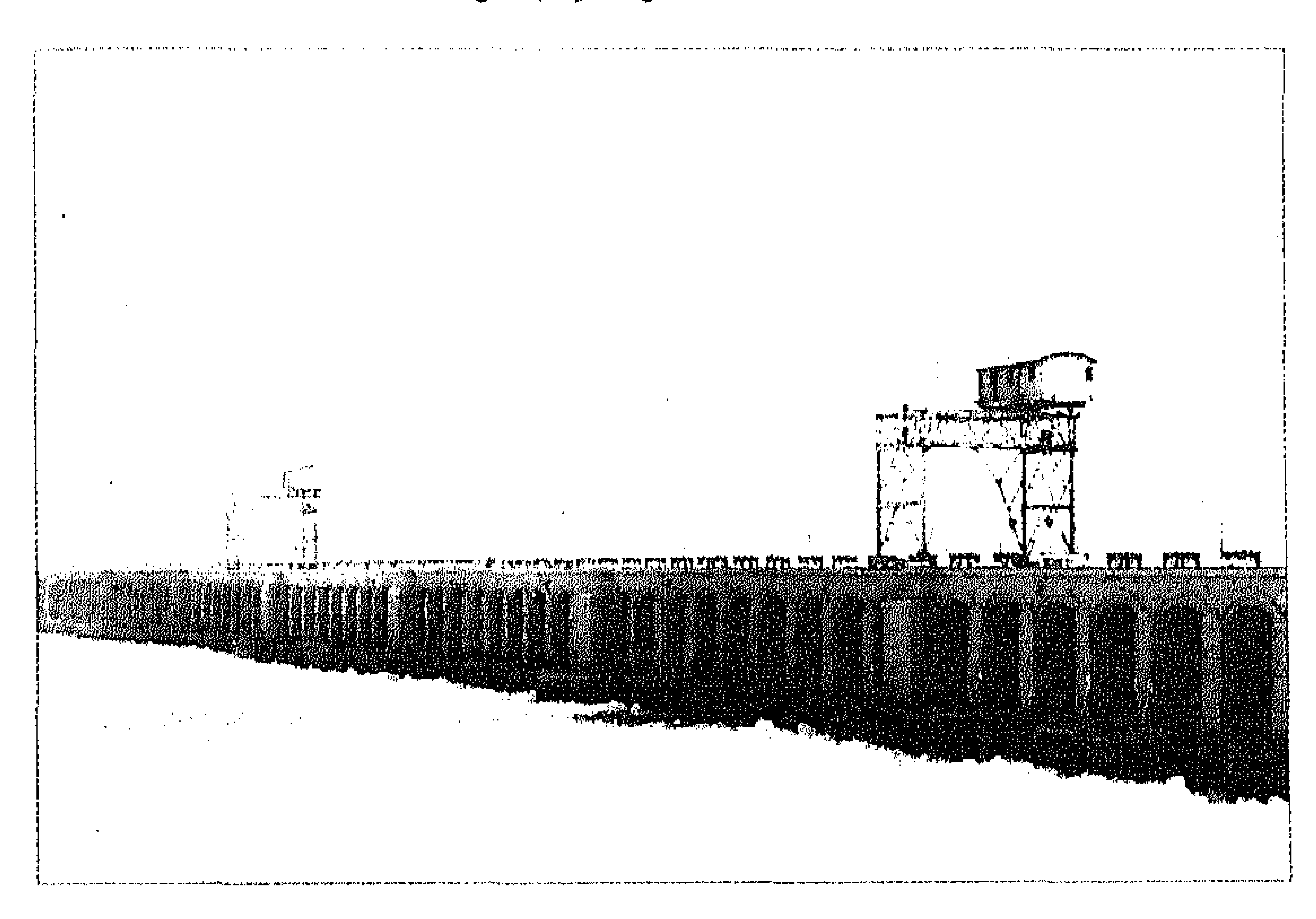




للصبح في أسيوط طقوسه... من على سلالم الملك، كنا نشاهد الشروق... والقوارب الصغيرة كانت تأتي من الناحية الأخرى من النيل.. من قرى أسيوط... قوارب بألوان زاهية.. لونتها البنات الصغيرات اللاتي كن ينقلن الخضراوات من الجزر القريبة.. القوارب الأخرى كانت تنقل الموظفين من القرى للمدينة... كانت القوارب تسير في خط ملتوٍ لتتفادى تيارات النيل القوية.... وكانت الحكايات تنساب من ذاكرة عبد الرحمن عن حكايات جدته.... وكان بالطقس قليل من برد فبراير...



١٩١٠ قصور الإنجليز



قناطر أسيوط

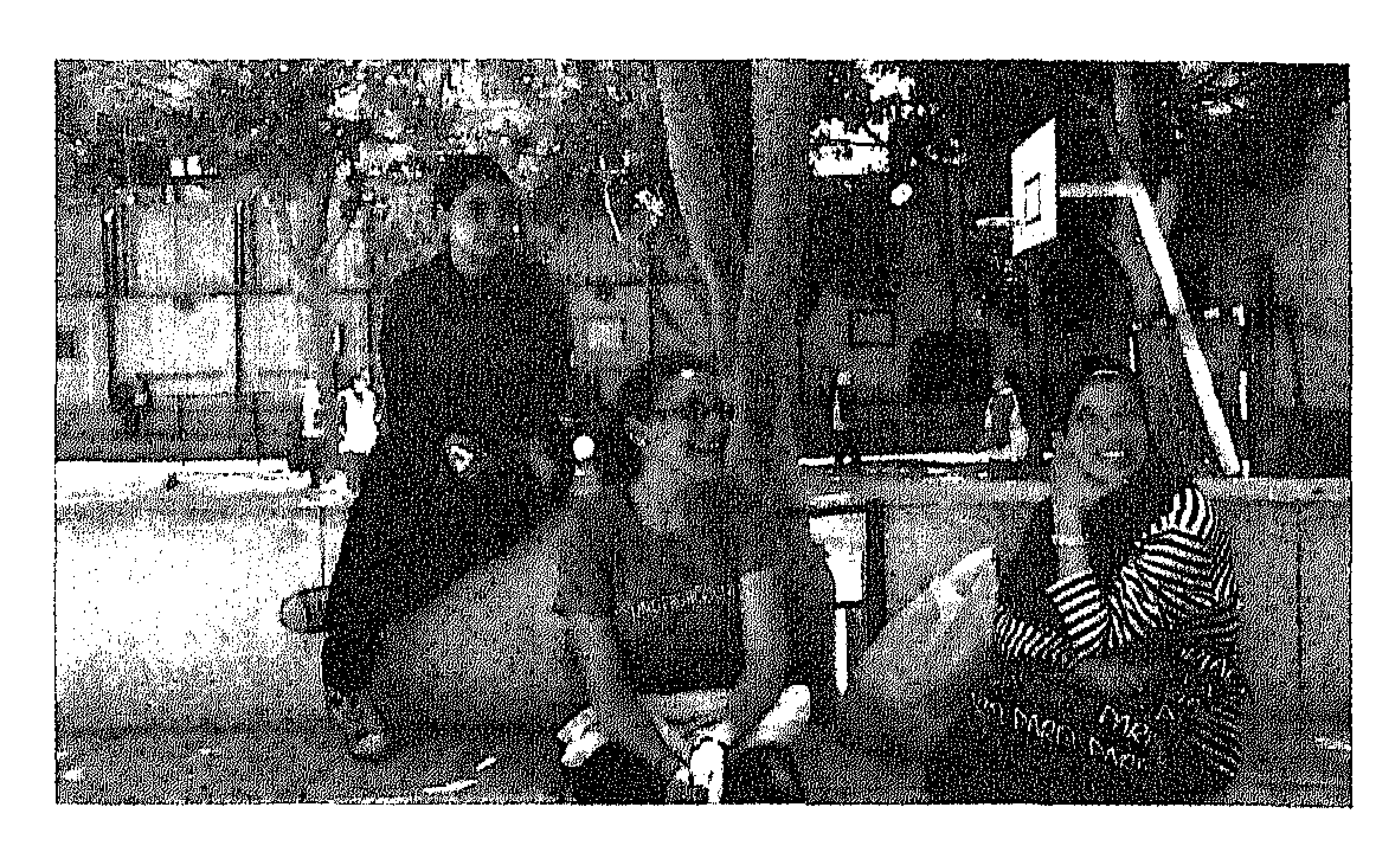




وقمح ...

٣

إرث الجذور



المنيا (إبريل- مايو ٢٠١٣)

أيـن تتخبّأ فينا البدايـات... وكيف تخدعنـا... وكيف نتزرع بالحـب وحـده في الأرض دون أن ندري أننا نحب... دون أن نعي أن الأرض حاضرة فينا... جذرا وفروعا وثمارا... وكيف لا نقوى على الهرب حتى وإن اجتثثنا حكايتنا من هنا... حتى ولو أوقفنا تراكمها وتتابعهـا وانتظامها وبدلناها.... بحكاية أخرى ولسـان آخر؟ كيف يَكِلُّنا الحنين؟ متى يقرر أن يصحو ليميل بنا نحو الأرض التي تركناها؟

حبيبتي مريم..

كان بيت سولا على شريط القطار... قلت لها إنني يمكنني أن أستأجر غرفة بفندق أخناتون.. رفضت.. قالت لي إن البيت سيكون خاليا إلا منها... وإن شيري ربما تأتي للمبيت معنا... ضَحكتْ.. قالت لي: «يارب تعرفي تنامي من صوت القطر»... طمأنتها.. قلت لها إن بيتي في القاهرة على مقربة من المطار... وإنني لم أعد أنتبه لمرور الطائرات فوق رأسي... كل ما نعتاده يا مريم يصير لصيقا بنا، لدرجة أننا نكف عن ملاحظته... كيف نتداوى من القرب يا حبيبتي... إذا كان للبعد مرض آخر.. هو الجفا؟

لم تكن تلك مَرَّتي الأولى في المنيا يا مريم... لكنها كانت مَرَّتي الأولى في بيت سولا.... وكنت كلما مر القطار من تحت شباكنا.. تذكرت.. كل المرات التي مررت فيها بالقطار على هذا البيت، ولم أرَ نفسي داخله... حياتنا يا مريم مكتوبة سلفا عند الله... وأماكننا كمنازل القمر.. تعرف أننا سنمر بها وتنتظرنا... تسري في جسدي رجفة ترقب... إذ يبدو العالم - يا حبيبتي - مكانا كبيرا... ولن أكون أبدا في عمر القمر لآلَفَ مداري... الأقمار لا تغترب يا مريم....إنما الغربة قدر الجذور...

أتنهد... تحول سولا عينيها من الشباك نحوي... أضواء الليل الزرقاء تنير شطرا من ابتسامتها المتعبة... تمازحني في هدوء.. «أخناتون مفيهوش شباك بيطل على القمر»... أربت على يدها... ولا أرد... لم أشأ أن أصرفها عن الليل... أعرف كم تشتاق لكل شيء هنا... للّيل... لضوء خافت يأتي من خلف المزارع البعيدة..

يميـز في غـير تحديـد... زرقة السـماء، من عتمـة الطريق، مـن الترعة الصغـيرة التـي تمر بجانـب خط السـكة الحديـد... كنـا نائمتين على فرشـة صغيرة أحضرتها سـولا فور عودتنا ليـلا إلى البيت... أغلقت الأنـوار ووضعت الفرشـة بين المقاعد تحت الشـباك.. عرفت حينها أنها تسـتعيد عاداتها القديمة مع البيت شـيئا فشـيئا... أخاف يا مريم من ارتباك الزمن... من أن يصير البيت زمنا مؤقتا... بينما تسـتغرقني أماكني المؤقتة عمرا كاملا فيها...

السـاعة تدق.. دقة واحـدة... تضحك سـولا كعادتها حين تريد أن تقـول شـيئا حزينا، أو حين تصرح بهاجس يخيفهـا... تقول: «هي السـاعة إزاي موقفتـش لحـد دلوقتـي؟ بفكـر إن واحنا مـش هنا... الساعة دي بتدق لمين؟».

هـذا بيـت تُرِكَ على عجل يا مريم... تُـرِكَ لعودة محتملة أو في غير تصديـق للرحيـل... المصريـون حـين يسـافرون يغطـون أثاثهم كله بمـلاءات بيضاء تليق بغيـاب طويل... لم يكن هذا هـو الحال هنا... الستائر التي حاكتها طنط ماري لم تزل معلقة في مكانها... صور سولا وأندريا وهم بعدُ صغار... أيقونة الأنبا كيرلس المعلقة إلى الجدار.... كتبُ تفسير الكتاب المقدس التي لم تفض من أغلفتها بعد... ملاءات الأسرة في الطابـق العلـوي... وقطـع الغسـيل التـي تركت لتُغسـل لاحقا... هذا البيت تُرك لعودة... حتى وإن كانت بعيدة يا حبيبتي...

أربـت على يد سـولا مرة أخـرى... أقول في صدق: «إن شـاء الله حترجعـوا كلكـم تعيشـوا هنا...».. أصمت لبرهة.. أسـأل: «هو بابا مينفعش يرجع هنا تاني؟».

تبتسم مرة أخرى.. تقول: «يعني هو عادة لما حد بيترشم[1] في مكان بيفضل هناك لحد آخر نفس.. كمان الكنيسة هناك محتاجاه أوي... بس ربنا كبير»....

أشفق على سولا يا مريم.. ولا أعرف إن كانت طنط ماري قد حاكت ستائر بيتها الجديد في السويد أم لا... كانت الستائر - في بيت المنيا - مزيجا من اللونين الأخضر والأصفر... وكانت الأباجورة الطويلة بجانب الشباك مغطاة بذات اللونين... وللستائر حبل قصير.. يلف حول أو يُفك من وردة القماش؛ ليفتح الستار أو يغلقه... ثمة جمال يتطلب أن ندرك زمانا أبديا داخلنا... حتى نكون قادرين على صنعه... لا وجود يا حبيبتي لزمان أبدي على الأرض... لكننا يلزمنا زمان أبدي داخلنا يغرينا بالاستمرار...

أشعر بعيني سولا تنظران إليَّ ، فألتفت... تقول لي: «إنتي عارفة إن الراهب مبيقعدش في مكان أكتر من ٦ سنين عشان لا المكان يتملكه، ولا هو يمتلك المكان».

أبتسم... تتابع:

«أنا لو قعدت في مصر أو لو رحتلهم السويد... مش حقعد في مكان أكتر من ٦ سنين... مش عايزة المكان يتملكني ...».

كم تأخذنا الجذور يا مريم حتى تتعلق بالأرض؟ نسيت أن أسأل... نسيت أن أسأل سولا ونسيت أن أسأل محمدا... قابلت محمدا في بلد أبي وسألته أن يعلمني أن أحب الأرض مثله... كان

(١) الرشم هو الختم، وتستعمل حين تختار الكنيسة قسا وتحدد مكان خدمته.

يصغـرني بعشر سـنوات، لكنـي حين سـألته: «كيف أحـب الأرض مثلك؟».. أشـفق عليَّ... قـال لي: «عيشي هنا وانتـي تعرفي»... لكن جذوري كانت حينها ضاربة في أرض أخرى... فلم أمكث في أرضه إلا قليلا...

مهنـد قـال لي يومـا.. إن الأهم مـن الانتـماء لـلأرض... الانتماء للأفـكار... هـل قـال أبونـا مايكل شـيئا مماثلا لنفسـه حين رشـمته الكنيسـة قسا في السويد؟ لم أكن أعرف من قبل - يا مريم - أن القس يكون رجلا عاديا قبل رشـمه.... أعنـي... لم يتطرق لذهني من قبل كيـف يكـون المرء قسـا... لم أفكـر من قبل مـاذا يـترك وراءه قبل أن يرتـدي العباءة السـوداء... عرفـت أنه يترك مهنتـه الأصلية... وربما مكانه... لكن أكثر ما توقفت عنده هو أنه يترك اسمه كذلك...

لم أرَ صـورة لأبينـا مايـكل قسـا... رأيـت صـوره أبـا... وحـين أحضرت سـولا ألبوم الصور الخاص بالعائلة... رأيته صديقا وقريبا وزوجـا... وخفـت يـا مريم... خفـت أن أحـزم أمتعتـي يوما، ولا أعـرف متى تكـون العـودة... نخون المـاضي حين نعتـاد الحاضر... ضلت أصابع سـولا طريقها لمفتاح نور الغرفـة في الظلام... لحظات شبيهة يا مريم هي ما تدلنا على أن شيئا قد تغير داخلنا....

هل أحسـد أبونا مايكل على أنه قـد امتلك الخفة اللازمة لأن يغير مكانه مرتين؟ حين سألت سولا عن قريتهم قالت إنهم من الفيوم... حمل أبوها نفسـه وهو بعدُ شـاب صغير لخلوة في الدير لعشرة أيام... هنـاك قابل أبانا كيرلس.. فخدمه وأحبه... عرض عليه أبونا كيرلس

أن يذهب معه للمنيا... فذهب... ودع أباه وأخته... وكان ينوي أن يصير راهبا حتى قابل طنط ماري... تزوجا وذهبا للمنيا... أخذا بيتا جميلا مطلا على شريط القطار والترعة الإبراهيمية... خدما في الكنيسة.. وأنجبا سولا وأندريا...ملأ البيت صورا لصغارهما.. وقديسيهما وآيات من الكتاب المقدس... حاكت طنط ماري ستائرها... وبنوا مع كل الذين بنوا.. الكنيسة الصغيرة جنب المنزل[1].... ثم احتاجتهم الكنيسة هناك... فتركوا البيت على عجل للسويد... سولا ظلت هنا حتى تكمل سنين دراستها الجامعية... وهم ذهبوا ليبنوا الكنيسة هناك... تركوا وراءهم ساعة تدق وقطارا يمر وحنينا.. تحكيه عينا سولا لعيني... يحكيه عناق طنط هدى والدة شيري لسولا... وتحكيه الكنيسة التي ما سلّمت سولا فيها على أحد إلا وسألها عن أبينا مايكل....

نخون الماضي يا مريم حين نعتاد الحاضر... لكن الماضي يتخبّأ فينا فقط.... وأجفل يا مريم.. من اللحظة التي يصحو فيها الحنين داخلي.. فأجد نفسي موروطة ما بين زمنين وعدة أماكن.. وأحمل فيها غربتي في كل الأماكن... بما فيهم مكاني الأول...

قطار يمر يا مريم وساعة تدق دقتين... ليتني أعرف - يا حبيبتي - كيف أكون لكِ جذرا وجناحين... ميلاد الجذور مؤلم يا مريم.. وأنا لم أزل بعدُ في مخاضي الخاص...

نسمة

---

(١) تم حرق هذه الكنيسة ضمن ما حُرق من الكنائس ما بين يولية وأغسطس ٢٠١٣.

عزيزي صفي..

غريب أن أجد إجابة لحكايتك هناك... حكايتك ليست سؤالا، لكن عينيك هما السؤال... خطر لي الآن وأنا أكتب لك... أنني لم أرَ عينيك فرحَتيْن قط... ولا أعرف كيف يمكننا أن نعيش بالقرب من أحد ولا نلحظ عينيه. أعرف أنك حائر، وأعرف أن بك حزنا... لكني لم ألحظ سوى الآن.. أن عينيك لم تفرحا قط طوال عامين هما عمر معرفتي بك... وحين أفتش بين صورك.. أجدك تضحك.. أحيانا... لكن عينيك على حالتهما من الصمت... ربما تُظهران ارتياحا مع بعض الناس أكثر من سواهم...ارتياحا يشير لقرب وصدق مودة... لكنه لا يكبر داخلك لسعادة أو امتلاء...

حتى حين رجعت لصورك في أمريكا... كانت ملامحك أصغر وابتسامتك تقول إنك بخير.. وإنك تجرب أشياء جديدة في الحياة... لكن عينيك كانتا خائفتين... كأنهما تنظران إلى حاجز زجاجي بعيد... وحدك تراه... تعرف أن كل الصخب من أمامك ماضٍ نحوه... تعرف أنه سينكسر... عيناك كانت بهما استغاثة مكتومة من عشر سنوات مضت... الآن هما حزينتان... وأنا هناك في المنيا تحضرني عيناك في غيابك... ويخطر على بالي أن أكتب لك وأسألك: هل انكسر الجدار؟ ماذا وجدت وراءه؟

قديما قالوا إن المستقبل هو الزمن الأسبق في الوجود... لأن الكون لم يكن ثم كان... وثمة ما يدفعني لأن أفكر بأننا حين نمضي نحو مستقبلنا.. فإننا نقترب من ماضينا... هل يكون المستقبل هو

الماضي المتجذر فينا؟ وهل يحضر الحاضر فقط كعاصفة تختبر فينا صدق الجذور؟ لا أعرف... تعرف... حين زرتُ أنا أمريكا لفت نظري أنهم يحيطون الشجر بعمودين يربطون إليهما الشجرة ليحموها من العاصفة حين تهب... هناك عرفت أنني لم أشهد عاصفة قط في مصر... وأن الشجر على امتداد النيل قوي ومتهدل.. حتى إن شجرة كالتينة.. ترخي فروعها إلى الأرض.. فيصير الفرع جذرا آخر[1]... وهكذا.. كلما حاولت الشجرة الفكاك من أسر الأرض.. غاصت فيها من جديد... أيكون الحاضر - يا صفي - هو معركتنا مع الجذور؟ وإلى أين نذهب حين ننتصر؛ إذ لا ينتظرنا بعد الاقتلاع.. سوى الموت؟

أظن أن سولا - يا صفي - لن تتمكن أبدا من الفرار من أسر الأرض...

لم تكن تينة مطمئنة إلى استقرارها... كنتُ - يا صفي - أتأملها من وقت كنا جالستين في القطار ننتظر الوصول لمحطة المنيا.. أتأمل شعرها الطفولي على جانبي رأسها... يدها التي تمتد لتضع خصلة صغيرة من الشعر وراء أذنها كلما تخجل... الصليب الفضي البسيط الذي ترتديه... لَشَدَّ ما كان يشبهها... لم يكن به صخب... كان يتابع العالم في هدوء معها... وحين كنا نمشي من البيت للكورنيش.. من الكورنيش للكنيسة.. من الكنيسة للجيزويت.. من الجيزويت

(١) شجرة التين تنتمي إلى سلالة أشجار الـ Ficus. هناك شجرة شهيرة بالزمالك أمام برج القاهرة تتساقط فروعها لتغدو جذورا هي الأخرى.

للقرى المحيطة... كنت أشفق عليها من العاصفة التي تبغي اقتلاعها من جذرها، خاصة وأنا أرى كل ما حولها يشدها للأرض...

نحن نقيد بالحكاية إلى الأرض يا صديقي...

الحكاية تقول إن المنيا مكان صغير... وإن بيت سولا قريب من بيت شيري... وإن الكنيسة الصغيرة في المنتصف... وإن الأولاد يذهبون لإحدى المدرستين... إما الراعي الصالح وإما الجيزويت... ويوم الجمعة تنعقد فصول الأحد... وإن الصيف حين يجيء نصعد التلة نحو المنيا الجديدة... نطل على المدينة التي نحفظ شوارعها الصغيرة جيدا... وفي الليل.. نجلس إلى الكورنيش... نحضر حفلا في الكنيسة.. نمرر الليل في الحكايات .. ونعيش على مقربة من بعضنا البعض...

الحكاية يا صفي تُروَى وتُقَصّ .. وكلاهما فعل مرتبط بالأرض... تروى الحكاية كما يُروَى النبات، وتقص كما نتتبع أثر الأقدام في الرمال...

و الحكاية تروى فينا... نحن الشجر الذي يستقبل الماء... نقف عزَّلا إزاء سريانه فينا.. نراقب جذعنا يشتد وقامتنا تطول، ونفرح بموسم الحصاد الأول... ثم نكبر أكثر.. يبدأ وعينا بالجذور... بكل ما بطن منا... ونسأل: أهذا الثمر هو نحن حقا؟

ماذا يفعل الشجر إزاء عكارة الماء يا صفي؟ ماذا نفعل نحن حين ندرك للمرة الأولى أن عكارة تسري بداخلنا... وأن الحكاية التي تروى فينا.. ليست منا؟

هل يكون حينها الهرب من الجذور متاحا؟

فضَّلتَ أنت أن تقطع الحكاية.. تبعثر تراكمها.. وتذهب... تستبدل مكانا بمكان.. وجوها بوجوه.. ومنطقا بمنطق آخر...

حين زرت أنا أمريكا تفاجأت بقِدمي... وشعرت أنني في فندق كبير لا بلد... أظنه بلدا مناسبا للتداوي من حكاية تثقلنا... فنلقيها... نستبدلها بروتين جديد.. وأشياء عدة نجربها للمرة الأولى متخففين من الماضي... الماضي الذي ينتظرنا في المستقبل... يقف خلف جدار زجاجي ...وحدك تراه... ينتظر أن تحسم معركتك مع الحاضر الذي تتشبث به لكي لا تعود... ينظر لك عينا بعين... تخاف عيناك إذ تدرك أنه سارٍ فيك... تستغيث استغاثة مكتومة قبل أن تتحول بعدها بعشر سنوات إلى عينين حزينتين...

* *

وقتما قابلتك يا صديقي من عامين... تمنيت لو أهديك بداية لا تهرب منها... وحكاية تُروَى فيك.. وتشبهك.

نسمة

عزيزي هيمن..

حكايتك سافرت معي... عبرت قارة وبحرا.. وظللت أحكيها عامين... لا أذكر ملامحك... أذكر أن قامتك كانت أطول مني ببضعة سنتيمترات... أذكر شعراتك البيض، وأذكر أنك كنت مبتسما طوال الساعتين اللتين قابلتك فيهما... وأذكر أن صوتك كان مرحبا... لازلت أحفظ هديتك الصغيرة في درج مكتبي.. هل تذكرها؟ كان الوقت ليلا وكنا نمشي بشوارع برلين معا في آخر ليلة لي هناك... وجدنا مكتبة وحيدة تعرض كتبا بالإنجليزية... أشار لي العامل أنهم سيغلقون المكان خلال خمس دقائق... دخلنا... لم يسمح لي الوقت بتفقد الكتب... وحين رجعت إليك وجدتك ابتعت لي مفكرة صغيرة عليها عصفور... مكتوب عليها « الحلم والقلم.. وحدهما قادران على أخذك إلى أي مكان..»... فهل ردك الحلم إلى بغداد، أم إن ليلك في ميونخ بات خاليا من الأحلام؟

تعرف يا هيمن... يراودني دوما خوف أن أفقد ذاكرتي وأنا على سفر... أخاف أن أصحو في المكان الغريب فأظن نفسي منه... تلبسني حكايته بينما أقف عزلاء في وجهها لا أعرف كيف أردها عني ولا أعرف من أكون... فكيف تشعر أنت، وأنت تفتح عينيك كل يوم في المكان الغريب؟ تمتد عيناك إلى المدى المطل على شرفتك... تعرف أن هذا النهر ليس نهرك، ولا هذه الجبال تشبه جبالك... لكنك هنا... هذا الفستان الملقى في غير ترتيب على الأريكة يخص زوجتك... والصليب على الحائط يخصها... والجلبة الآتية من المطبخ

تخص ولدين... بهما بعض ملامحك.. لكنك لا تعرف كيف تحدثهم بلغتك... وكنت غائبا عن حضورك وقتما اخترت أنت وأمهما اسميهما ... فجاءا ينتميان إلى هنا... لا شيء بقي من هناك....

لم تحكِ لي عن هناك... لم تحكِ لي عن بيتك ولا عن بغداد... حكيت لي قصة هروبك منها وعن شاطئ ألمانيا الذي استقبلك، وتركت لخيالي أن يكمل تفاصيل حكايتك... ليتني كنت أكبر قليلا وقت الغزو[1] حتي أعي ما حدث... بيني وبينك ما يزيد على العشرين عاما... وفي الـ ١٩٩١، لم يكن عمري قد تخطى السنوات الخمس بعد... لكنني أذكر تحذير المعلمات لنا بعدم التقاط أي جسم غريب من على الأرض... لا أذكر في هذا العمر إن كانت طائرات حربية مرت فوق مصر أم لا... لكني أذكر أن تحذيراتهم جاءت خشية الحرب التي بدأت في بلاد قريبة... وأذكر الليلة التي تحلقنا فيها أمام التلفزيون نستمع لنشرة الأخبار.. ويبكي أبي مع أغنية ياسمين الخيام عن الغزو... أذكر ذلك كله... لكني لم أكن أعرف أنه في ذات الليلة كان أبوك يدبر لهربك أنت وأخيك من بغداد... لم يكن يخشى عليكما الحرب... كان يخاف أن تتورطا في الدم حين يأخذكما قسرا جيش صدام في صفوفه...

لم تحكِ لي عن أبيك، لكني أراه في تلك الليلة مقطبا مدعيا القوة .. يرتب لأمر خروجكما سريعا... يعطيكما ما يكفيكما من المال.. يتفق معكما على موعد للعودة وطريقة للاتصال.. يسلمكما لمن يتولى

(١) غزو العراق للكويت من أغسطس ١٩٩٠ وحتى فبراير ١٩٩١.

أمـر تهريبكـما... تعبران الحدود تحت غطاء الليـل... وفي الصباح... تكتشف أمركما السلطات الإيرانية...

*** * ***

كيف احتملت؟

أنـت الهارب من بطش لبطش... فقدت بيتك للأبد... والأسـوأ من سـجنك في إيران، هـو احتمال ترحيلك لبـلادك التي هربت منها لتـوك... أيـن يكون المنفى يـا هيمن؟ في الغربـة، أم في الوطن، أم إننا نحمله داخلنا حد أن نكفر بالجذور؟

هل كرهت أباك؟ كرهت الله؟ كيف طردتَ بغداد منك؟

نسـيت أن أسأل سولا: كم تأخذنا الجذور حتى تتعلق بالأرض؟ نسيت أن أسألك: ما الذي يربطنا بالأرض؟

أقـول إننـا نقيـد بالحكايـة إلى الأرض... ولكـن السـجن انقطاع للحكايـة... تدربـتَ فيه أنت على الرحيل عـن كل ما يخصك... كل مـا يُعرفك مـن العالم كان عبئا عليك... اسـمك وعائلتك ولسـانك وقِبلتـك... وحـين خرجتَ.. لم تعـد... أكملت طريقـك الذي كان عليك أن تقطعه من سنوات ليلة خرجت من بغداد.... وحين حملتك السـفينة إلى ألمانيا.. لم تكن قد تعلمت الألمانية بعد... لكنك أقسـمت بينك وبين نفسـك عـلى أن تضع حاجزا بينك وبـين كل ما مضى.... حتى بينك وبين لغتك...

حكيت لنفسك حكاية جديدة.. بلغة جديدة... وكنت تصحو كل يوم في المكان الغريب تلبسك حكايته... حكاية البيت ذي الواجهة الزجاجية.. والمدى المطل على شرفتك يحمل إليك نهرا وجبلا... الصليب الصغير على الحائط... صورة زوجتك.. وصور أعياد ميلاد ولدين فيهما بعض ملامحك... تناديهما باسمين أليفين إلى لسانك الجديد... ألكسندر وفرانك.... كبر الولدان وصارا قريبين من عمرك وقت خرجت من بغداد... ولسبب لا يعلمه إلا الله... نادتك جذورك ذات صباح... لم يأخذك الحلم ولا القلم لها... لكن استيقظ داخلك مَوَّال عراقي قديم... انفلت من وراء باب موصد وسكن شفتيك ذات صباح... غنيته ثم انتبهت... أن الجبل والنهر لا يخصانك... وأنك..

عدت.

* * *

نسيت أن أسأل سولا يا هيمن: كم تأخذنا الجذور حتى تتعلق بالأرض؟ وفاتني أن أسألك: أي شيء فينا ينغرس في الأرض، وفي أي عمر، وكيف تصير حياتنا كلها ردة فعل له... إما قبولا وإما رفضا؟

أين تتخبَّأ فينا البدايات... وكيف تخدعنا... وكيف ننزرع بالحب وحده في الأرض دون أن ندري أننا نحب... دون أن نعي أن الأرض حاضرة فينا... جذرا وفروعا وثمارا... وكيف لا نقوى على الهرب

حتى وإن اجتثثنا حكايتنا من هنا... حتى ولو أوقفنا تراكمها وتتابعها وانتظامهـا وبدلناهـا.... بحكايـة أخرى ولسـان آخر؟ كيـف يَكِلُّنا الحنين؟ متى يقرر أن يصحو ليميل بنا نحو الأرض التى تركناها؟

فاتني أن أسـألك يا هيمن لأن سـؤالا لم يكن حاضرا فِيَّ.... حنينا كان نائما... ثم استيقظ بالسفر...

نسمة

حبيبتي سولا..

أرهقتنـي حكايتك الهادئة في الليل تحت الشـباك المطل على شريط القطار... وكلما كنت أحـاول أن أحكيها.. كنت ألجأ لحكايات بديلة لكـي أفسر شـيئا يزرعـك هنـا ولا نعيـه... لم أحكِ عـن الأقباط كما توقعتنـي أنتِ أن أكتب... وحكايتك كانت أثرى من أن أحكيها عن اختـلاف دينك عنـي، وعن أنني أقمت في بيت قس ودخلت كنيسـة وقـرأتُ أجزاء من كتابك المقدس.... تلك أشـياء أمتن لك عليها أن سـمحتِ لي بالاقتراب منك إلى هذا الحد وأراها... لكنك أيقظتِ فيَّ حنينـا لشيء لم أكن أدري أنه داخلي... ووعيته حين كنت أصحبك في شوارع مدينتك التي تحفظينها بعفوية السير...

أذكـركِ حـين قلـتِ إن الراهب لا يمكث في مكان أكثر من سـت سنوات؛ حتى لا يتملكه المكان ولا يتملك المكان... أقول لك الآن: أي ضير أن تتملكنا الأماكن؟ ندرب قلوبنا على الرحيل لأن زمنا أبديا ليـس موجودا عـلى الأرض... لكننا يلزمنا زمن أبـديّ داخلنا يغرينا بالاسـتمرار.... ومادامت البدايات تتخبَّأ فينا فقط ولا تموت... لماذا نهجرهـا حَـدَّ أن يوقظها الحنـين في مكان آخر ولا نعـرف عندها متى تكون العودة؟

يـا سـولا.. كلـما سـافرت دعـوت الله أنْ يصحبنـي في السـفر.. أقول له... وأنا في الحياة مسـافرة.... السـفر كشف يا حبيبتي ورحلة تعلـم... نحـن أغنـى بالأماكـن والبشر... أنـا أغنى بـك... وأغنى

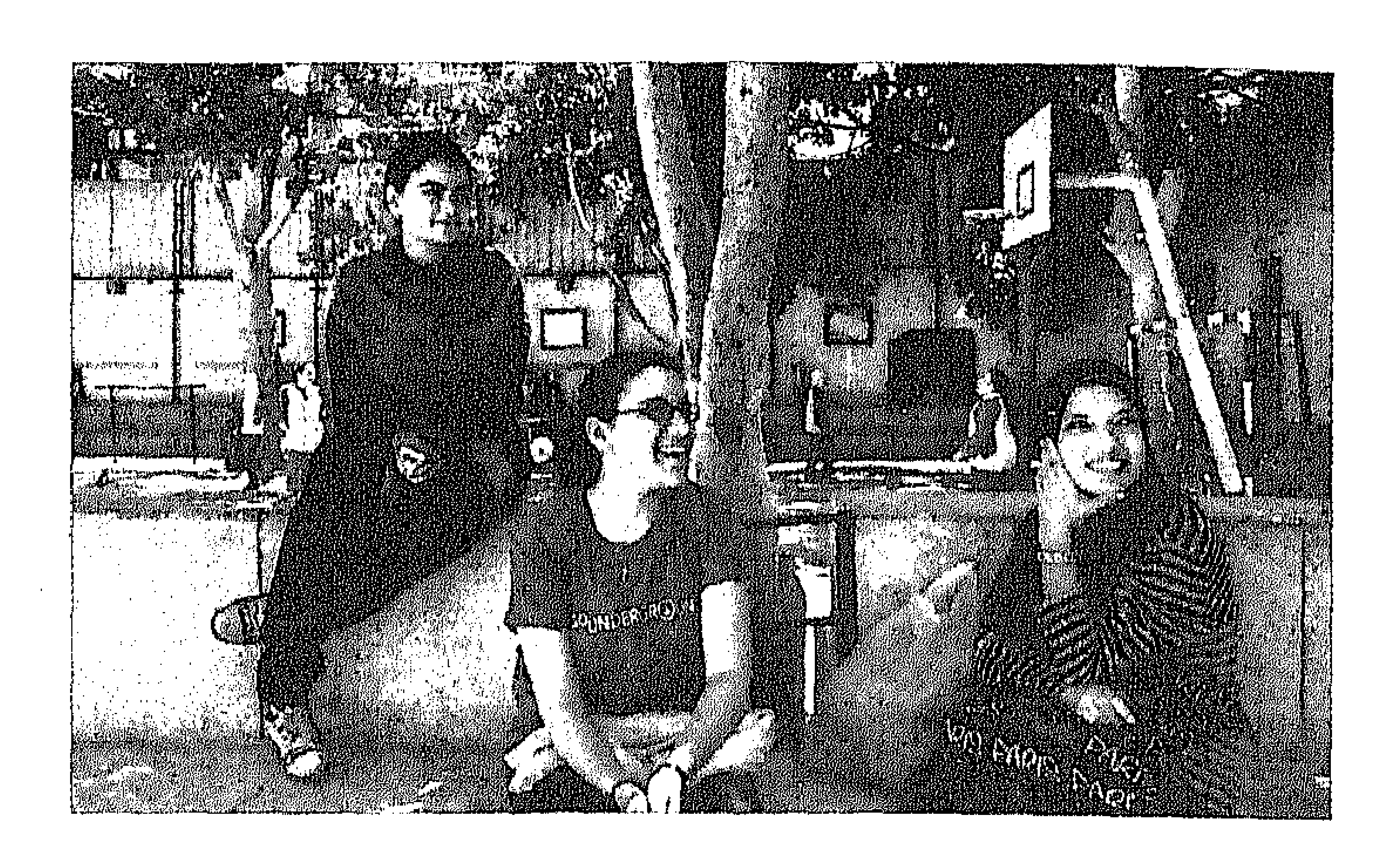
بالمنيا... وبأصدقائك ومفردات حياتك التي لم أكن لأعيشها لولا أن قطعت مسافة إليكِ... مسافة في نفسي وفي المكان....

سافري يا حبيبتي وتملكي العالم... ثبتي جناحيك جيدا وكوني في خفة العابرين جميعهم... لكن حين تستقرين.. اثبتي كشجرة... واحتضني حكايتك كما تحتضنيها الآن... السجن لا يعطل تراكم الحكاية.. ولا السفر يفعل... لكنها تُغيب بفعل الإهمال... راكمي حكايتك وأحبيها وأوصليها... ببيتك والنيل الذي امتلكتِهِ وصدق الود بينك وبين أصدقائك... وربي ابنتك على الحكاية لتحبها... وملكيها أرضك وجذرك... وأوقفي لها العالم لتراه... وتعود متى تصحو فيها الجذور للعودة... المهم... أن تحب جذرها ولا تقضي عمرها هربا من حكاية مقدرة لها....

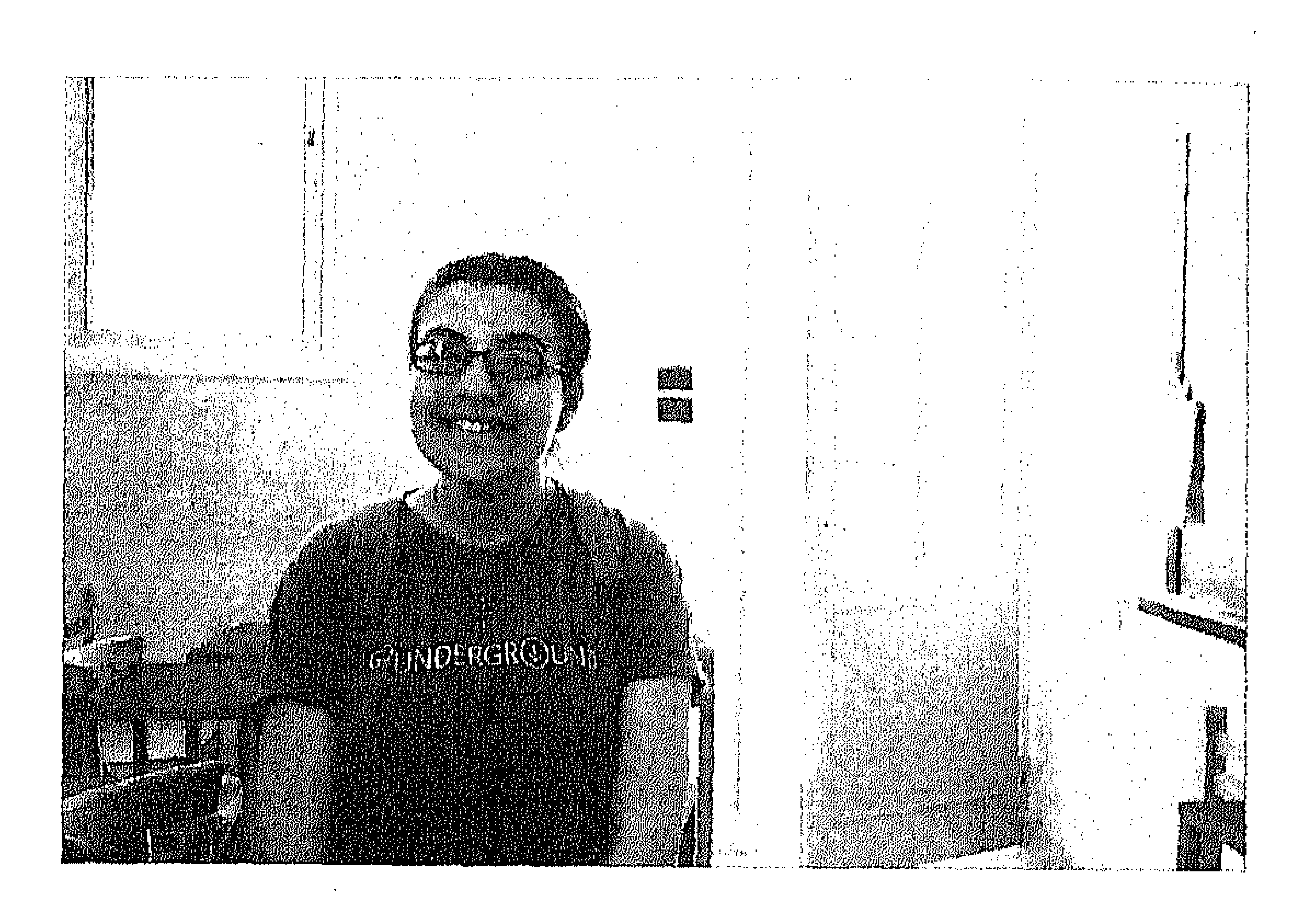
الأجدى يا حبيبتي -أظن- أن نقضي عمرنا بحثا عن الجذر الحقيقي الذي يربطنا بهذا العالم... ومتى نجده... نتشبث به.. لأن دائرة العمر لا تكتمل إلا حين تقف النهاية على ذات نقطة البداية....

لكِ مني - يا حبيبتي - محبة بعمق الجذور...

نسمة



شيري وسولا .. مدرسة الجيزويت



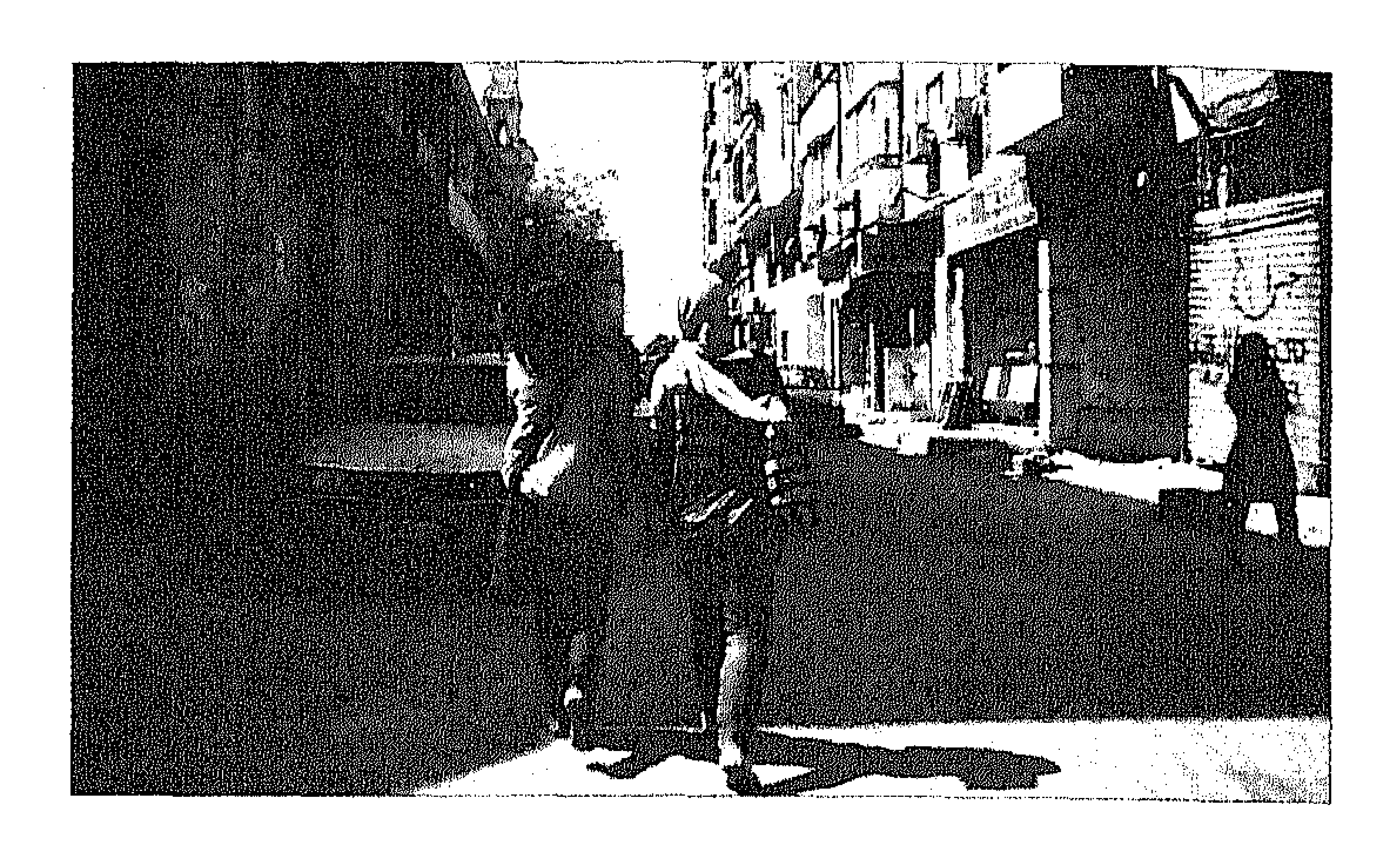
سولا



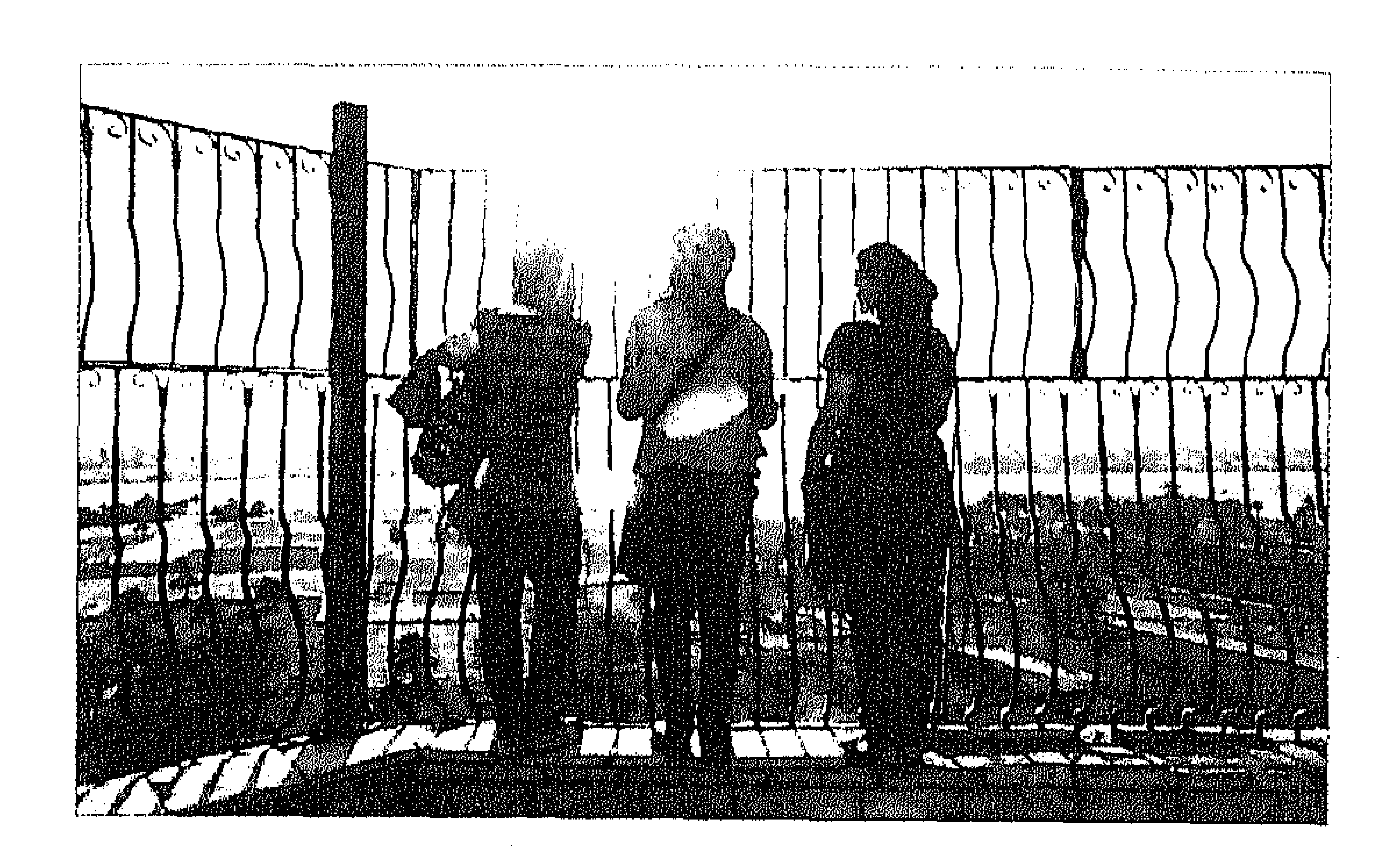
قمح



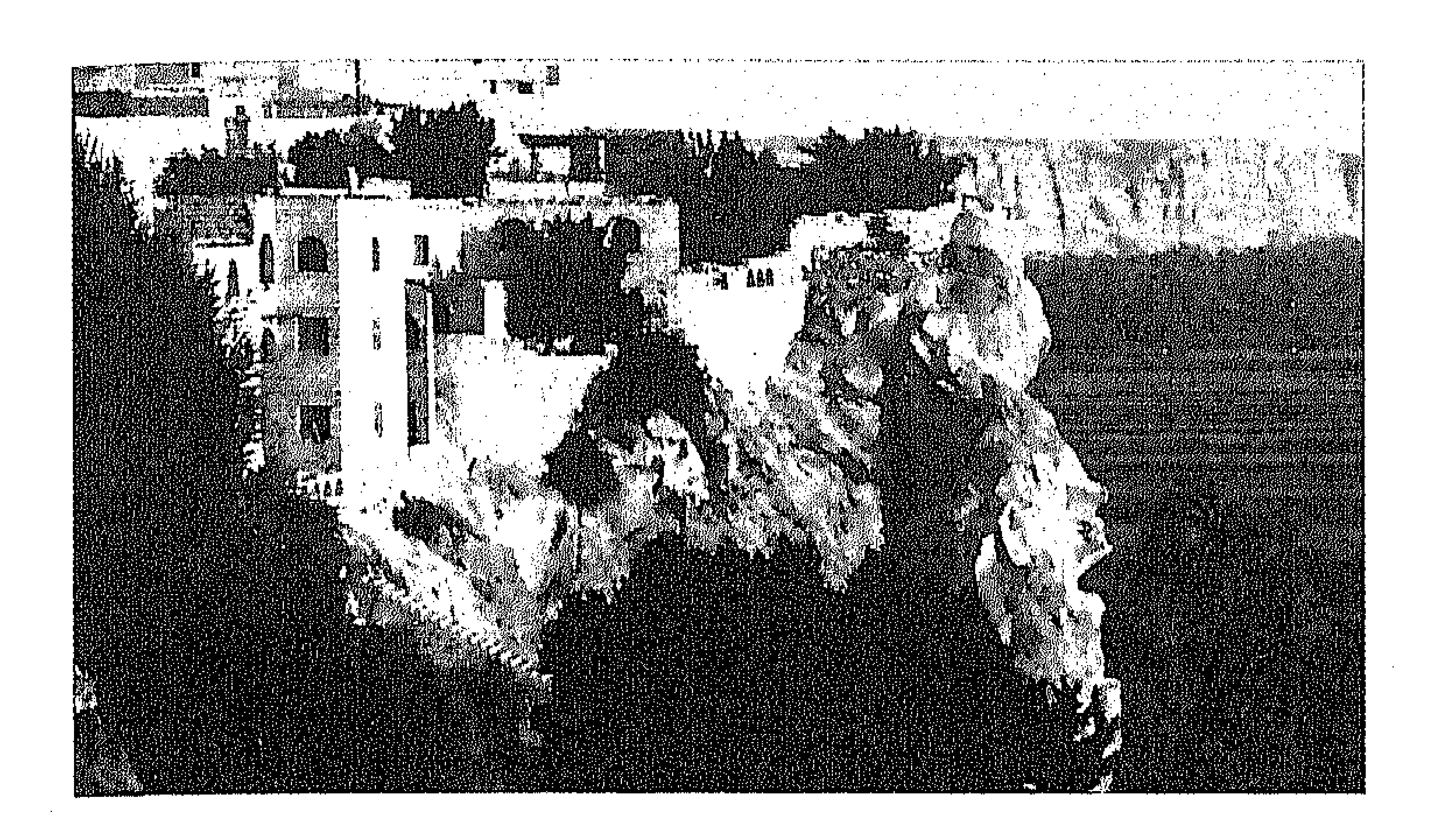
سبوع.. بيت عم حنا...



«شوارع المنيا التي تحفظينها بعفوية السير»



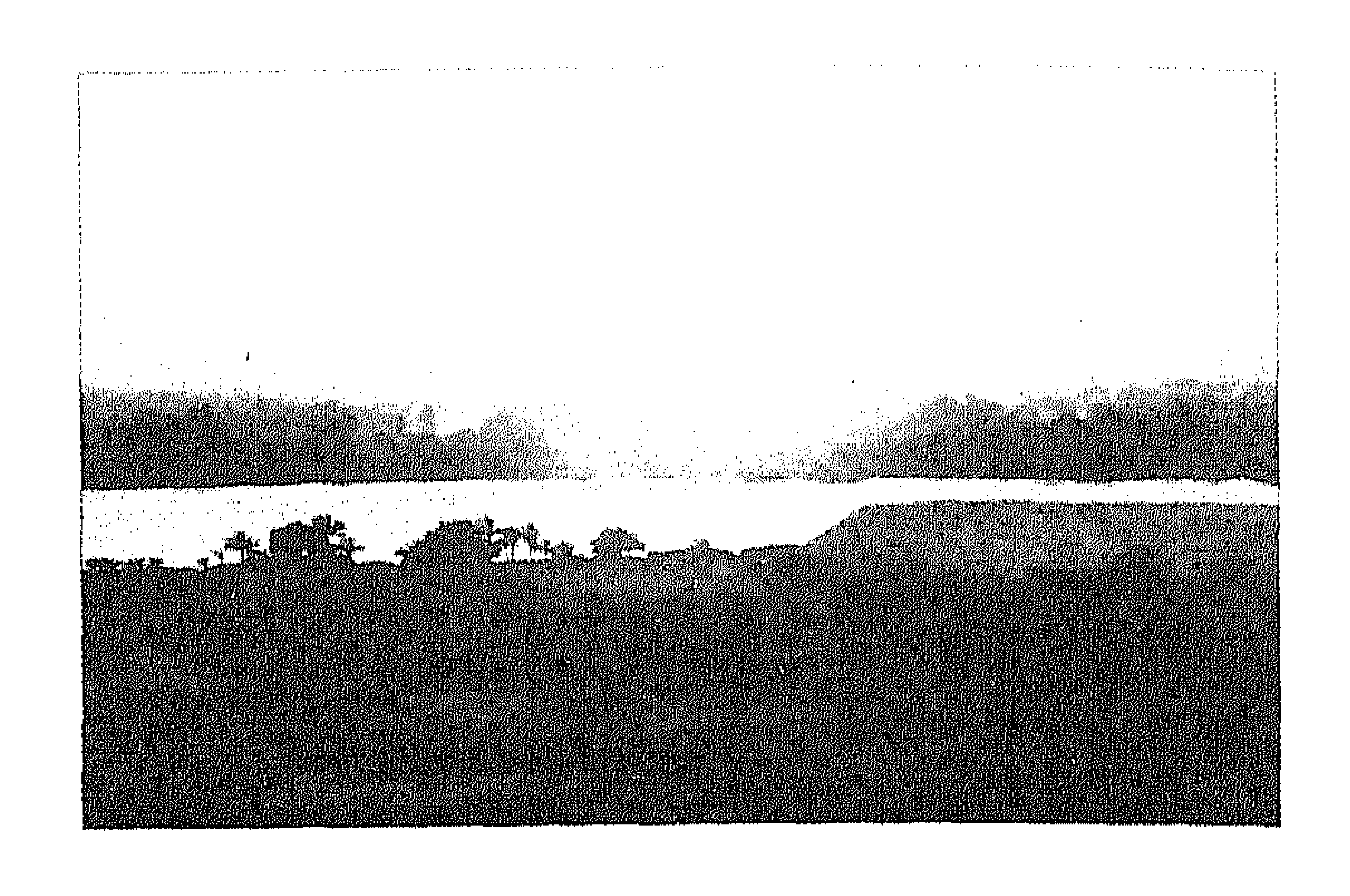
صحبة ... فوق جبل الطير



أديرة... من جبل الطير



مقابر





النيل من جبل الطير

٤

إرث الشجر



(سانت كاترين مايو-يونية ٢٠١٣)

« لكـن أظـن أننا نمـضي في حياتنـا محملين بالأسـئلة...أودع الله فينـا الأسـئلة وأودع في كونـه الإجابـات.. وجعـل قلبنـا مـرآة... يرتد إليها الكـون الكبير ليسـكن مقدار قبضة يد من صدورنا... لعل الأماكن تنادينا بما أودعه الله فيها من إجابات لأسـئلتنا... لعل كاترين أجابت سؤال جوردن عن البيت... وسؤال محمـود عـن السـماء... وسـؤال فريدة عـن الحب.. وسؤالَكِ عن أول الحب...».

عزيزتي نوران..

صوت تواشيح الفجر اختلط بنومي... تسلل من الشباك وعبر الطاولة البامبو والكليمة البرتقالية الصغيرة المعلقة بقمرة السقف.. ثم هبط إلى الفرشة الصوفية التي أنام عليها.. واستقر بأذني...

تقلبت مرتين.. ثم استسلمت لقدر الصحو... اعتدلت... كان الليل لم يزل مطلا من الشباك... وفي نفسي تساءلت عن مكان الراديو الذي يأتي منه الصوت.. إذ استبعدت أن يكون جوردن قد شغل المسجل... وفي نفس الوقت... أعرف أن البيت يقف وحده في الوادي المطل على جبل الربَة... إذن.. سافر الصوت.. مر بي.. وبفريدة النائمة إلى جواري... مسها.. فقامت... وضعت الحجاب على رأسها واستجابت لنداء الفجر في الخارج... كما استجابت لنداء كاترين لها من قبل..

هل ترث الأماكن أسطورتها يا حبيبتي؟ الأسطورة تقول إن القديسة كاترين كانت من الإسكندرية.. وعاشت في عصر الاضطهاد المسيحي في مصر... أيقونتها في متحف الدير تحكي أنها كانت جميلة.. في يدها ريشة وبجانبها كتاب... وعند قدميها استقرت كرة الفلك لتشير إلى معرفتها بالسماء... تجلس على العجلة التي عذبها عليها الرومان جراء إيمانها بالمسيحية، ومحاجتها للإمبراطور في تعذيبه للمسيحيين في مصر... الأمر الذي أغضبه حد قتلها.... وحين ماتت.. نزلت الملائكة وحملت رفاتها... ووضعتها أعلى جبل

كاتريـن... فهل ناداهـا المكان، أم إنه ورث أسـطورته مُذ ذلك الحين فنادى جوردن ومحمودا وفريدة كذلك؟

لا أعـرف يا نوران كيف تنادينا الأماكن... لكنني أظن أننا نمضي في حياتنـا محملـين بالأسـئلة... كان يُسري يقـول لي إن من لا يمتلك أسرارا في حياتـه تنقصه التجربة.. الآن أقول إن من لا يمتلك أسـئلة في حياتـه.. تنقصـه الحيـاة...أودع الله فينـا الأسـئلة وأودع في كونـه الإجابـات.. وجعـل قلبنـا مرآة... يرتـد إليها الكون الكبير ليسـكن مقدار قبضـة يـد من صدورنـا... لعل الأماكـن تنادينا بـما أودعه الله فيها من إجابات لأسـئلتنا... لعل كاترين أجابت سؤال جوردن عن البيت... وسـؤال محمود عن السـماء... وسـؤال فريـدة عن الحب.. وسؤالَكِ عن أول الحب...

لا زلـتُ أحمل رسـالتَكِ في قلبي... حين كتبـتِ تقولين إن محمود درويش كتب أن أول الحب هو ما يستحق الحياة... وأول الحب ليس هوالحـب الأول... لكنـه البداية من كل حب... سـحر البداية الذي يجمع حكايتين معا، ويجعلهما يبدوان تكملة لبعضهما البعض وامتداد حيـاة... قلوبنـا يا حبيبتـي مفطورة على التعلـق.. إذ إنها -بحكم أنها الأصدق فينا- تعرف... أن بنا وحشـة.. واحتياجا...

ربـما لـو أننا من هنا، لكنا أقـل غربة... لكن الله قدر لنـا أن نُخلق في السـماء.. ويحمـل وجداننا جـزءا من الجنة داخلـه... ثم نحيـا هنا.. على الأرض... وإزاء اغترابنا نتعلق... يقول درويش إن الحب مر به دون أن يـدري هـو ودون أن يدري الحب كذلك... يقول إنـه كذبتنا الصادقة...

وإنـه يأتي كالـبرق، كالصاعقـة... وإزاء قوتـه لا نملك إلا أن نسـلم... ونصدق...

المثنى لغة.. هو رد الشيء بعضه لبعض... هو أن نُطوى.. ونتغلب لكوننـا اثنين... اثنين بينهما اتفاق في اللفـظ والمعنى.... هل نُطوىَ - يـا حبيبتـي - قبل الحب، أم بعـده، أم إن المثنى هو اسـم مرتبط بفعل الاقـتراب.. دائما أبدا؟ وإن كان هذا يفسر كل المرات التي أحببنا فيها كلما اقتربنا... فكيف نفسر... كل المرات التي انفصلنا فيها عن ذواتنا وشـاهدناها من الخـارج... تجلس مع من يفترض أنـه قريب منها... ترى عمق الاختلاف... وتدرك للمرة الأولى أنهما جاءا من حكايات مختلفـة... وأن الحكايتين غير قابلتين للطي.... سـكن البرق وهدأت العاصفة وأكمل الحب مروره بعدنا...

هـل يكذب الحب، أم تكذب علينا تصوراتنا عنه، أم لأن به شـيئا من كل شيء نتمسك بصورة واحدة له وننسى أنه مثلنا... يكبر؟

لا شيء يفـسر الحب سـوى لفظـه.... لأن الله حـين أراد أن يدلنا عليه سـماه باسـم مشـتق مـن الحَـب... جعل فيـه حياة وجعلـه يثمر عـن حياة... وخلق لنا الشـجر لنفهمه... وصحبنـي في رحلة طويلة بدأهـا من قبل سـفري إلى سـيناء... أتى فيها بجوردن من أسـكتلندا لكاترين... زرع في قلبه حب أرضها... فبنى بيتا واستقر... عمل مع البدو في حدائقهم وسـمائهم... ثم قدر الله لمحمود أن يحب الفلك... وأن يدرسـه بالقاهـرة ثـم يبحـث عن السـماء في كاتريـن... وقدر له ولجـوردن اللقاء... كانت فريدة آنذاك تتعلـم النحت... وتقف أمام

كل جمال تتأمله... علمها محمود جمال السماء.. ثم صحبها إلى كاترين لتحب القمر ومجموعة الجبار والنجم سهيل... فأحبته هو... ثم حين وقفت هي واحتضنت كاترين صورة في قلبها وحكت لي عنها... طلبت منها أن تأخذني إلى هناك... في الوقت الذي تذكرت سؤالك عن أول الحب... وحين ذهبت إلى هناك... وقفت أمام الشجرة التي زرعها عم عودة في حديقته بوادي طلاح.... كانت شجرة خوخ.. زرع بها فرعا من شجرة مشمش...أتى بالفرع الصغير.. وأحدث به قطعا مائلا صغيرا بحيث صار مدببا قابلا للغرس... ثم زرعه في جذع شجرة الخوخ... لم يزرعه في الأرض... وحين رأيت الرباط الصغير الذي ربط به اثنيهما - بعضهما ببعض- حتى يحدث الالتئام بين الشجرتين.. تذكرت ضلع آدم الذي خرجت منه حواء... ولم أفهم... كما لابد الشجرة لم تفهم... كما لابد آدم لم يفهم.... كيف سكن داخلنا احتمال حياة أخرى لم ندركه إلا حين تحقق؟

كانت الشجرة تقف في صمت ... نصف فروعها تثمر خوخا.. والنصف الآخر مشمشا مطعما بخوخ... فهل تثنيهما اللغة، أم تجعلهما مفردا لأنهما صارا شجرة واحدة؟

لكل شيء وقت... سألت عم عودة إن كان بإمكانه أن يطعم المشمش في شجرة اللوز؟ أجاب بالنفي... إذ إن اللوز لابد أن ينقطع عنه الماء في وقت ما حتى يجمد قشره.... لكن المشمش لا يحتمل نقص المياه.... سألته إن كان لابد للزرعتين أن تثمرا في ذات الموسم حتى ينجح التطعيم.. قال لي: نعم... ولابد أن يكونا من نفس العائلة كذلك...

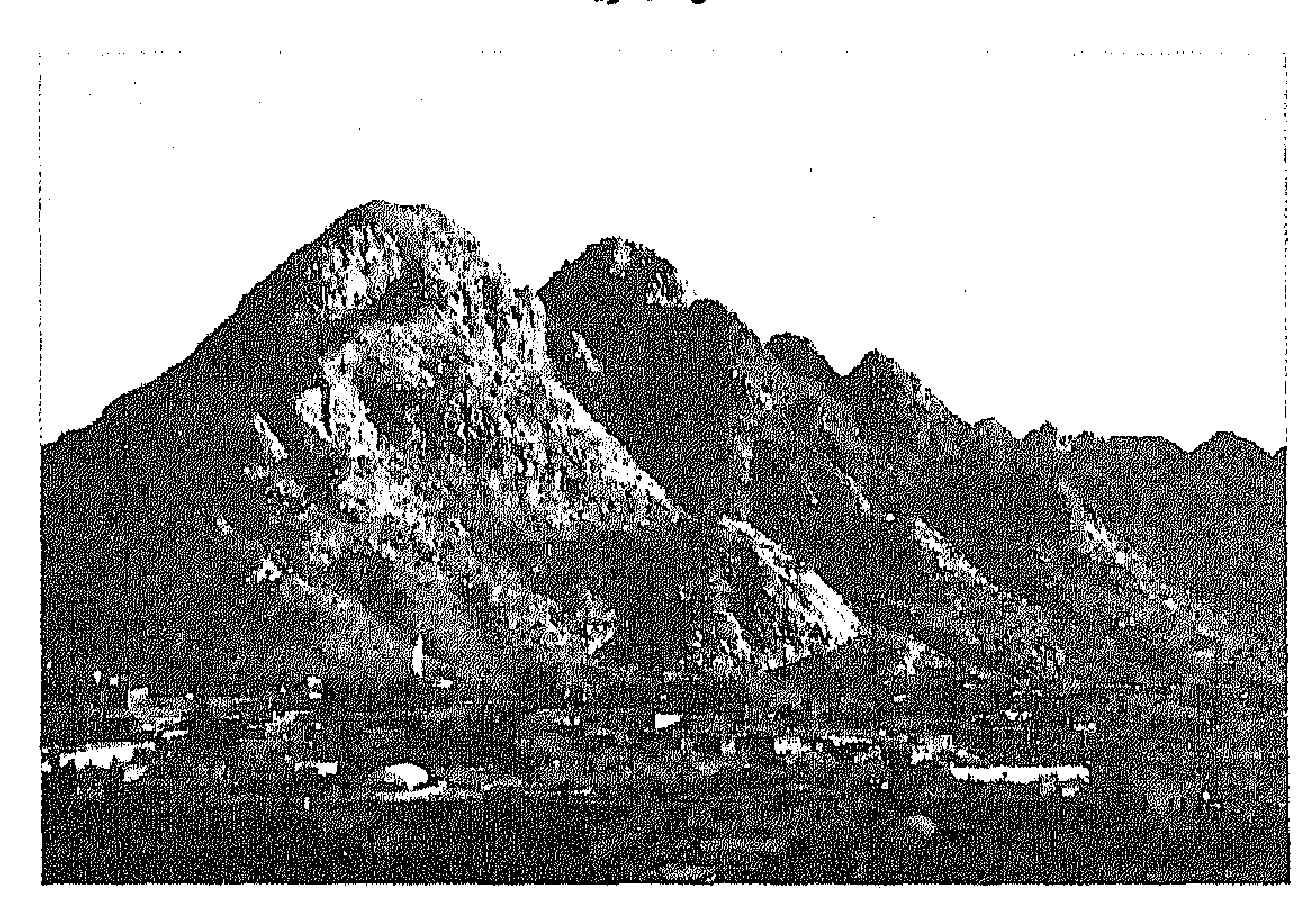
تُعرف عائلة النبات بشكل الأوراق ورائحة العطر الذي تفرزه... فكيف نعرف نحن يا نوران... إن كانت حكايتنا قابلة للطي والتثنية، أم لا؟ أعـرف يـا حبيبتي أنك تخشـين من اختلاف مواسـم الحب... مـن أن يزهر الحـب داخلك دون أن ينوِّر في الآخر... وأخشى دوما يـا حبيبتي من عجز بصري عن إدراك الحقيقـة... وأخاف أن أغرس فرعا في شجرة.. وأشد عليهما رباطا محكما حتى يشتد عودهما ويصيرا واحدا.. فيموتا لأن ماء لم يجرِ بينهما....

أبصارنا عاجزة يا حبيبتي ولا نور لنا إلا من عند الله... ربما يتجلى نور الله يوم نَصْحُو.. لنجد أن حياة أَثمرت.. ما بين فرعين.

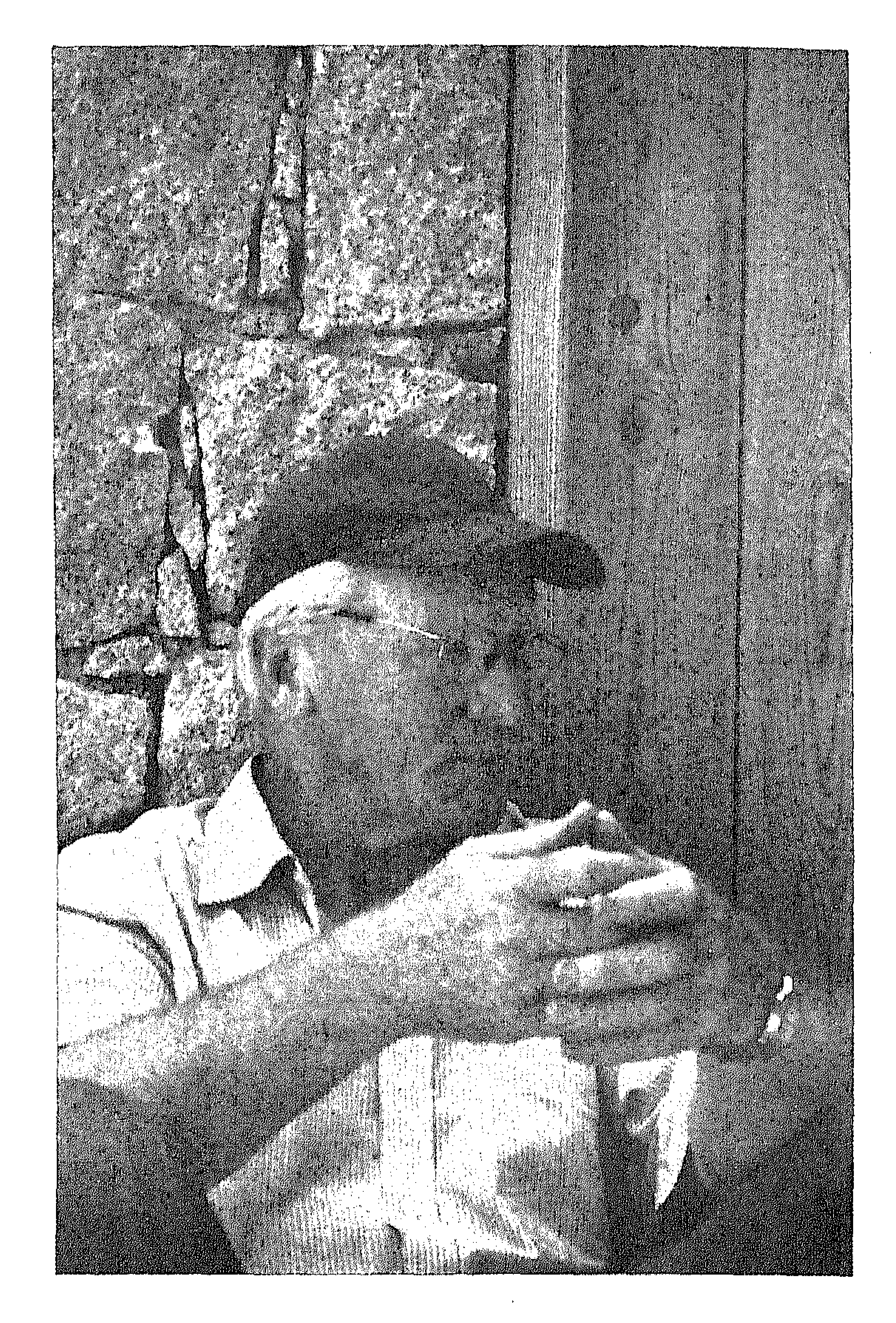
نسمة



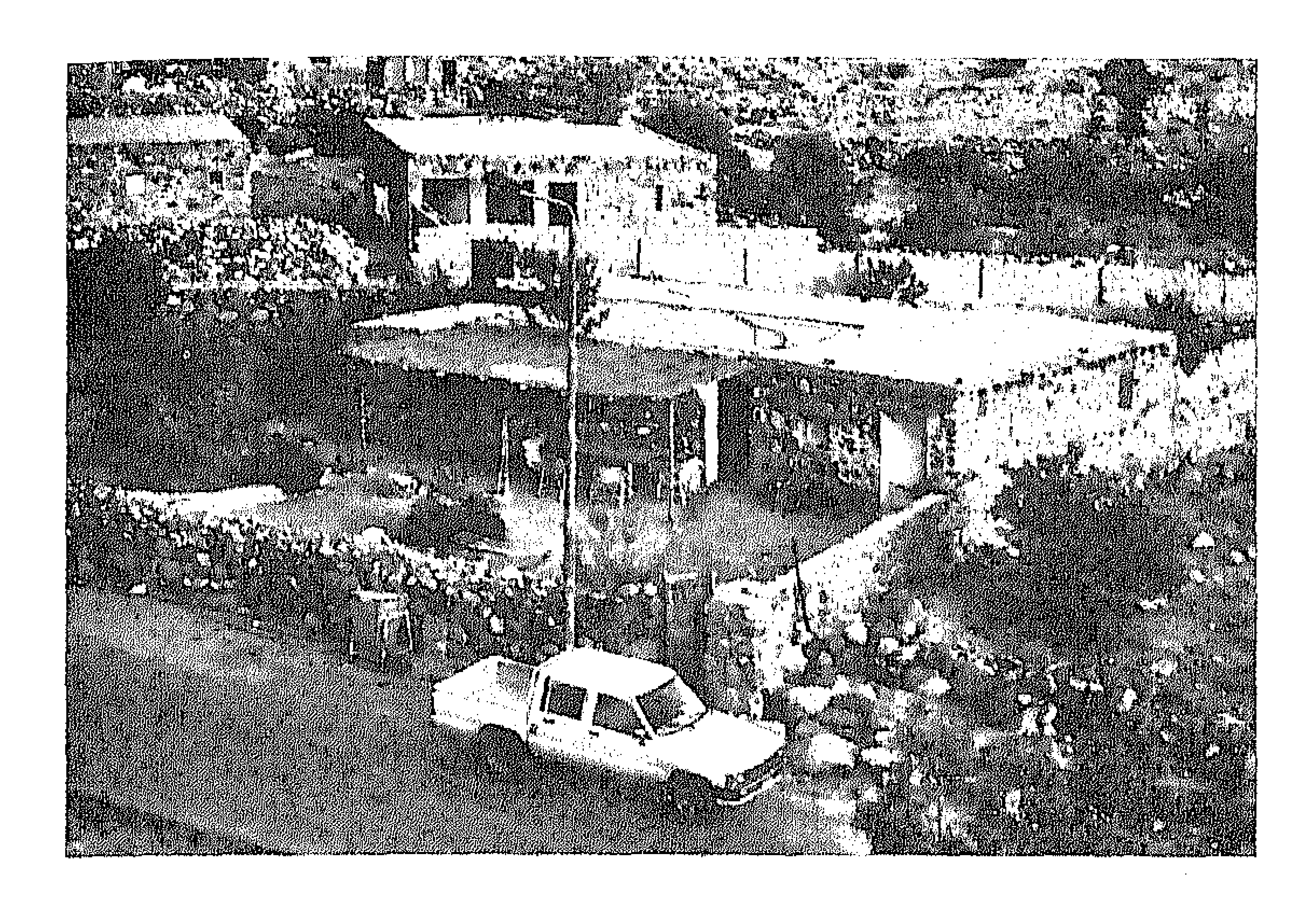
محمود وفريدة



جبل الربة



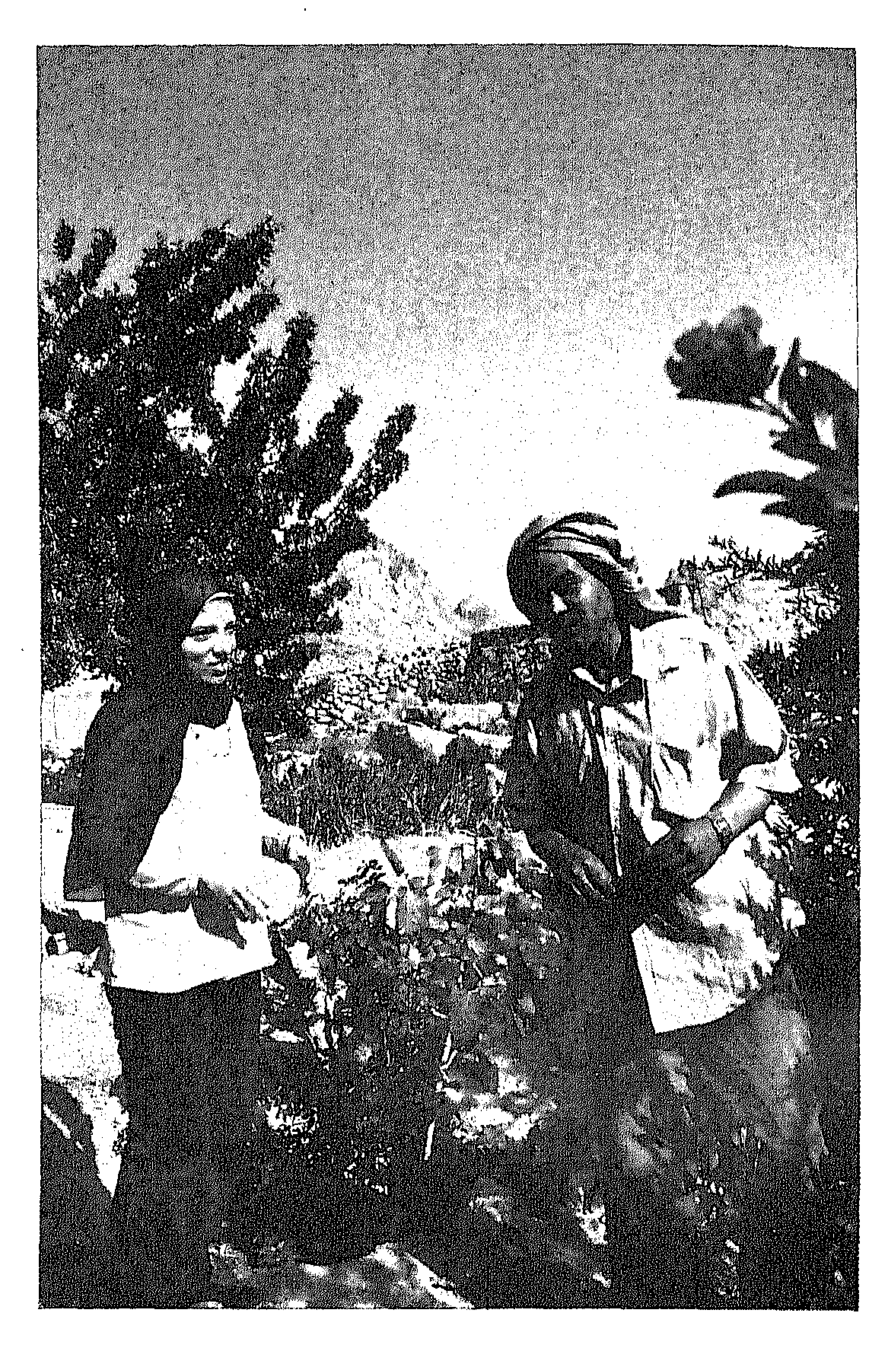
جوردن



بيت جوردن



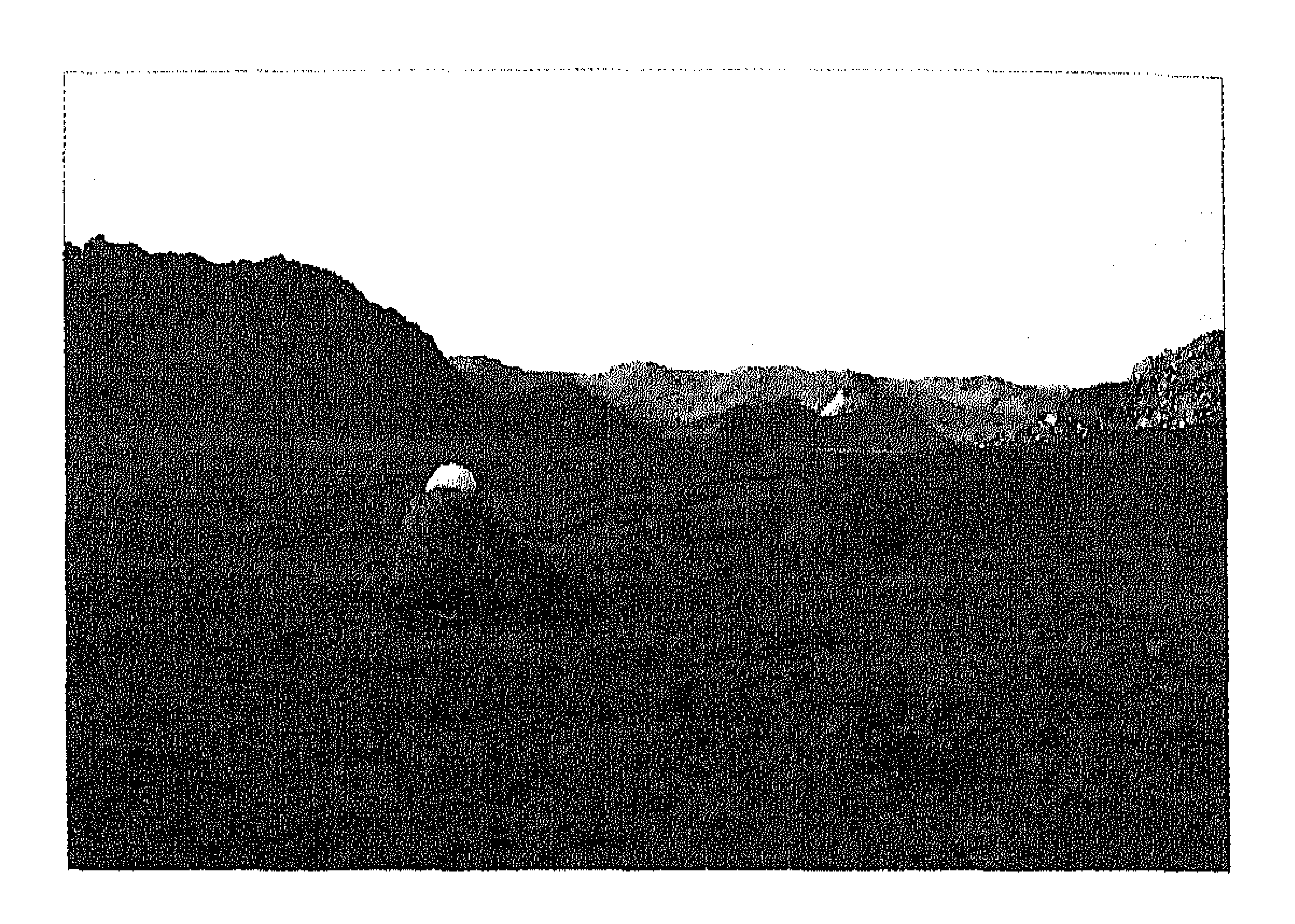
اللوز..



عم عودة.. وادي طلاح



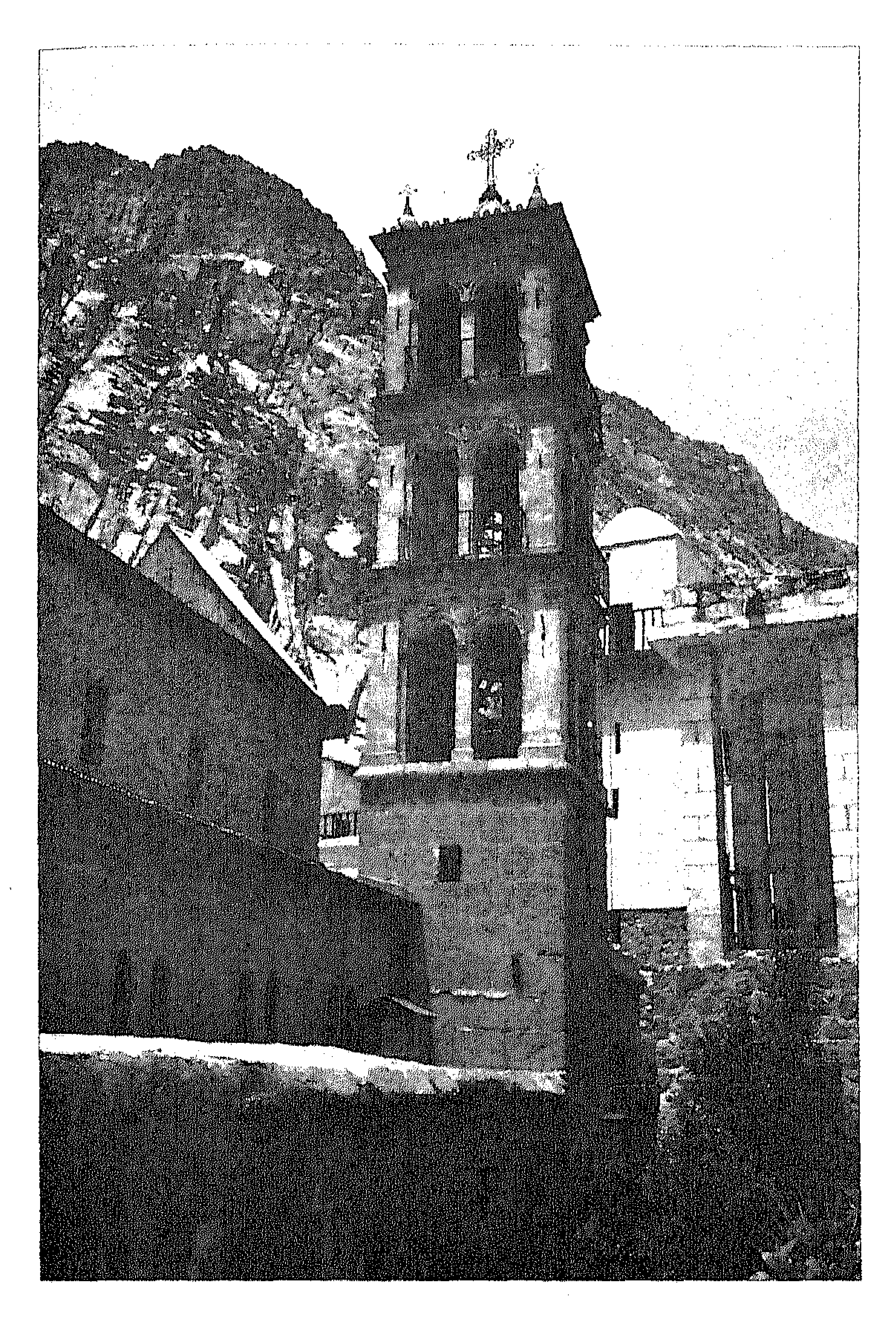
سلام...



مدرسة تعليم ركوب الجمال



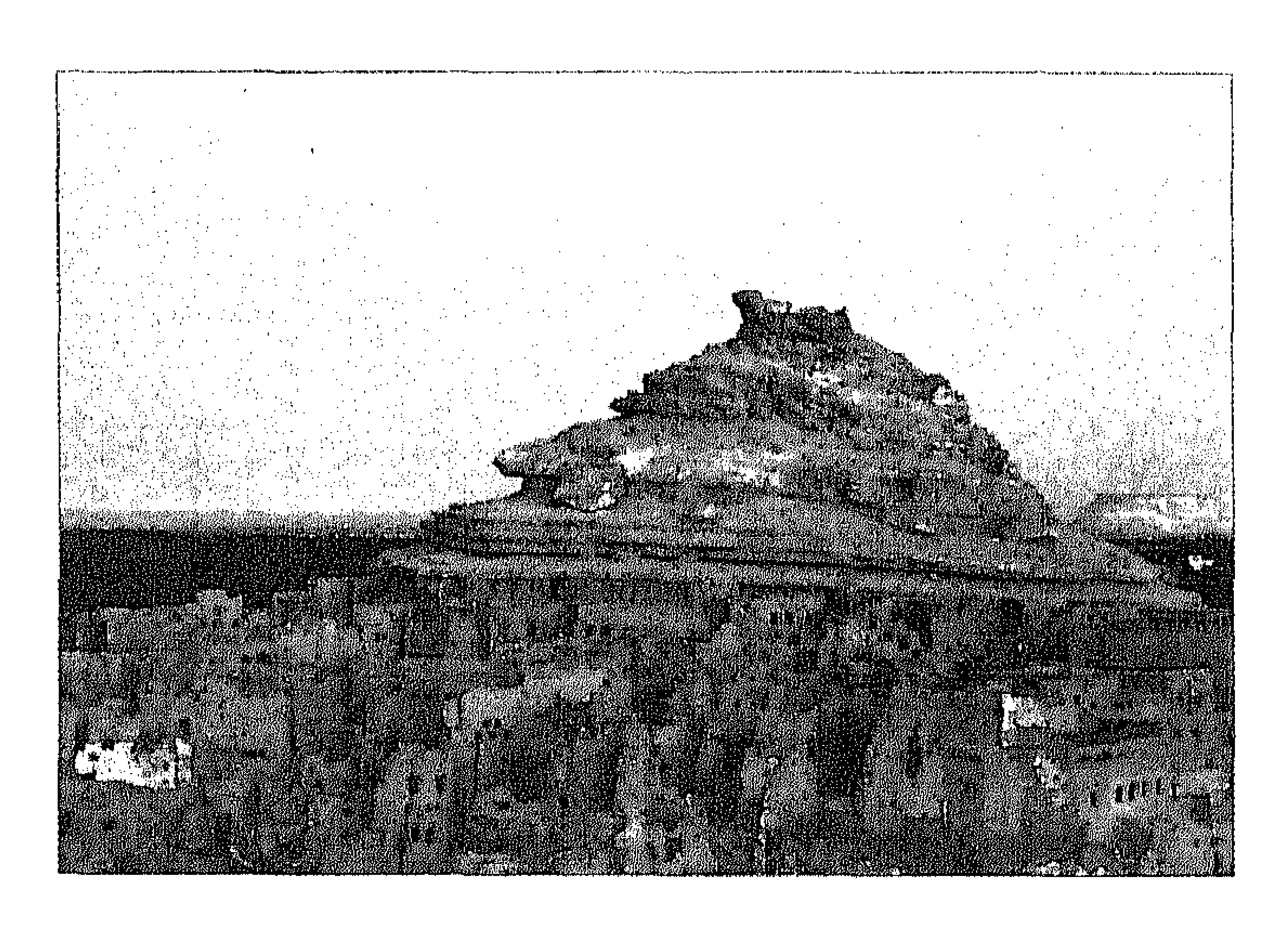
روزماري من جنينة جوردن



دیر سانت کاترین

٥

إرث الملح



(سيوة – يونية ٢٠١٣)

«و من أطلال البيوت القديمة المتبقية رأيت الشبابيك الثلاثة التي حكى عنها يوسف تزين واجهات البيوت... دوما ثلاثة شبابيك... ومن فتحاتها الصغيرة غير المنتظمة رأيتُ أثر يدك... يدوخني - يا مليكة - أن أرى بشرية اليد التي سوت جدران البيوت... اليد التي ربتت على الطين أو الملح لتسويهما في جدار... فبدت جدران البيوت في الريف أو الواحة مستوية بقدر ما وسع اليد والنظر من الاستواء... تلك البيوت تشبهنا يا مليكة... لا تشبه فقط بصمات أيدينا... لكن تشبه سعيا دائبا خلف صراط مستقيم نسلكه... هل خلق الله لنا الطريق ليذكرنا بالطريق إليه؟ سبحانه خلق الطريق وعلمنا معنى الاستقامة في جذوع النخيل... في وجوهنا... وفي المدى....».

عزيزتي مليكة[1]..

كانــت أم رُحيــم تنتظــرني بالداخل... فــور ما انتهينا مــن غذائنا، قــال لي رُحيم إن الوالــدة تبغي الحديث معي... فقمــت... لم أكن قد قابلت أي امرأة سـيوية قبلها... باسـتثنائك يا مليكـة... حتى أنتِ.. لم أقابلـك حقا... قرأتُ حكايتـك... كان بينك وبين أم رُحيم قرنان مـن الزمـان... وكنت أخطو خطـواتي القليلة إلى الداخـل متوقعة أن أراكِ.... وفي وعيي اسـتقر أنك أصغر من أم رُحيم مع أنك سـبقتِها إلى الوجـود... كنت أنبه نفسي بين الحين والآخر أنني لن أراكِ.. أنك ما عدتِ موجودة... أو أنك لم توجدي من الأساس....

تركنـي رُحيـم عند بـاب الغرفـة... قال شـيئا بالسـيوية بصوت عالٍ... توقعـت أنه ينبهها لقدومي.. أخرت نفسي ثانيتين ثم دلفت إلى الداخـل... وفي الداخـل كان فـراش صغـير إلى يمـين الحجرة... بجانبـه صندوق خشـبي كبير ملـون... عرفتُ فيها بعـد أنهما يخصان جدة رُحيم.... وإلى يسـار الحجرة، كانت «الشـلت» الصغيرة الملونة موضوعة إلى الأرض ومسـتندة إلى الحائط فيها يشـبه المقاعد... كانت

(١) مليكـة هي إحدى شـخصيات رواية «واحة الغروب» للأديـب بهاء طاهر. تدور أحـداث الروايـة في واحة سيوة في بدايات القرن التاسـع عشر. مليكة هي شـابة ثائـرة عـلى تقاليد الواحة. تم تزويجها من شـيخ طاعن في السـنّ. ثم حين يموت، تقتضي تقاليد الواحة أن تظل الأرملة حبيسة بيتها فترة ٤٠ يوما لا ترى فيها أحدا؛ لاعتقادهم أن ملك الموت يتلبسـها طوال تلـك الفترة، وأنها إن خرجت من بيتها تتحول لغولة تنشر الخراب في الأرض.

خرجت مليكة من بيتها فور موت زوجها، فقتلها أهل الواحة.

جدير بالذكر أن هذا التقليد قديم جدا ولا يمارس الآن.

أم رُحيم تجلس إلى واحدة منها... وكان أمامها كرسي بلاستيكي أبيض... رحبت بي وسلمتُ عليها... قربتني دون أن تضمني إليها... وقبلتني أربع قبلات على خديَّ دون أن يتلامس الخدان... خدي وخدها... أذعنتُ لعاداتها في السلام... أشارت لي أن أجلس إلى الكرسي البلاستيكي... لكني جلستُ إلى الأرض... همهمت هي بشيء ما... ثم قربتني إليها لأجلس إلى واحدة من الشلت الصغيرة... ففعلت....

لم أعرف بماذا أناديها يا مليكة... لم تكن بعمر أمي... كانت أصغر بنحو عشرين عاما... كانت تلبس جلبابا أزرق يشبه جلابيبنا... لن أصف ملامحها هنا... أعرف أن رجلا غريبا لم يرَ وجهها ربما منذ تزوجت... وأعرف أنها كانت تأبى أن ألتقط لها أي صورة... صورتها الوحيدة ستبقى هنا.. في ذاكرتي... تنظر لي بعينيها القويتين الحنونتين... تضيقهما قليلا حين تتحدث وحين تنفذ داخلي....

شكرتها على الاستضافة والطعام... قالت لي إنني لم آكل... شكرتها وقلت لها إن ما أكلته يكفي... لا أعرف إن كانت صدقتني أم لا... خفت أن تظن أنني لم أحب الأكل أو أني تكبرت عليه... فأضفت.. أني سأقول لأمي حين أعود أن تضيف النعنع إلى الشوربة كما يفعلون هنا... ابتسمت برفق وسألتني: «متجوزة؟» أجبتُ بالنفي واستحيت قليلا... قلت لها إننا نتأخر في الزواج في القاهرة... هزت رأسها متفهمة ولم تعلق... سألتها إن كانت زارت القاهرة من قبل... فأجابت أنها قد زارتها مرتين... مرة مع أبيها والأخرى مع زوجها... بين المرتين ثلاثة عشر عاما... علقت.. أن مصر اختلفت بين المرتين..

أضفت أنا أنها الآن اختلفت كثيرا حتى بالنسبة إلى عيني.... سألتها إن كانت قد زارت مدنا أخرى.. قالت: نعم... مصر (القاهرة) والإسكندرية ومطروح... وابتسمت حين قالت: «مطروح»... فعرفت أنها تحبها...

لا أعرف يا مليكة إن كنتِ سمعتِ بهذه المدن من قبل أم لا... أعرف أنك تعرفين القاهرة بالتأكيد... على الأقل كنتِ تعرفين أنها المكان الذي كرهه قومك[1]... ربما كان هذا سببا كافيا لتحبيها دون أن تعرفيها حقا... كنتِ تتمردين على حكايتك وتبحثين عن صحبة أخرى غير قومك... إذن ربما أحببتِ القاهرة لأنها بعيدة... على الرغم من أنه لم يأتكم منها آنذاك إلا المأمور الذي كان يثقل كاهل أهل الواحة بالضرائب... والجيش الذي كان يحمي سلطة المأمور والدولة حين تقاومون.... قال لي الشيخ عبد الله إن الحكم في سيوة حتى وقت قريب كان حكما حدوديا... يكفي أن يقول أحدهم أي شيء حتى يلقى في السجن دون محاكمة... دوما يا مليكة هناك حد يقتلنا أن نعبره... العادات والتقاليد في حالتك...وسيادة الدولة في حالتنا...

نادت أم رحيم على بنتيها فأتيتا... صغيرتان كانتا... فاطمة في الحادية عشرة والصغيرة الأخرى لا أذكر اسمها.. لعلها كانت

(١) كانت العلاقة قديما متوترة ما بين الحكومة المصرية وأهل الواحة. كانت الحكومة في القاهرة تبعث بمأمور لقسم الواحة وكانت وظيفته الأساسية جمع الضرائب عن الزروع، وحين كان يرفض أهل الواحة تسديد المبالغ المطلوبة، كانت الحكومة تبعث بقوات الجيش لإحكام النظام بالواحة. حاولت مليكة اللجوء لبيت مأمور الواحة في الرواية، لكنه أبى أن يساعدها وتركها لقومها فقتلوها.

بين السابعة والثامنة.... لاطفتهما... فضحكتا... سألاني إن كنت أتكلم سيويا.. فأجبت بالنفي... سألتهما: هل تعلماني؟ قالتا: نعم... قلت كيف أقول: «بنت حلوة»؟ قالت فاطمة «تلتشىء تكويس» ومدت الواو... فنظرت لها وقلت: «أنتِ تلتشىء تكويس» .. فضحكت واستحت.

كانت أم رُحيم تتابعنا بنظراتها القوية الودودة في صمت... البنتان يعلماني، وهي تصحح لي النطق إن لزم.... سألتها الصغيرة شيئا ما... فتجاهلته... ألحت الصغيرة... فترجمت لي أخيرا: «تسأل عن اسمك».... انتبهت للمرة الأولى منذ جلسنا أنني لم أعرفهما بي... قلتُ: «نسمة»...برهة صمت مرت... كسرتها بأن نظرت إلى بناتها ثم إليَّ.... قالت: «نص ولادي سمر... ونصهم بيض» ... كنتُ قد انتبهت إلى ذلك قبل أن تقوله... رُحيم وعثمان ومحمود شُقر بعيون زرقاء... ينتمون - لا شك - إلى النسل الرومي الذي دخل البلاد ربما مع الإسكندر... والبنتان سمراوان بعيون سوداء جميلة... هاتان لا دخل للإسكندر بهما... هاتان البنتان لنا.... وابتسمت.

هذا المكان لم يكن معزولا قط يا مليكة... الواحة لم تكن معزولة... كانت فقط بعيدة... فهل كان سينقذك يا عزيزتي الطريق الذي شقوه ليربط سيوة بمطروح؟ هل كنتِ ستجدين في نفسك القوة للجوء للطريق بعدما صدك المأمور، وتطير بك قومك؟ أحزن إذ أفكر... أكاد أسأل أم رُحيم عنك... ثم أنتبه... أسألها عن الطريق... أقول لها: «كيف كانت سيوة قبل الطريق؟ ترد كأنما تنتزع الذكريات

انتزاعا.... تقول لي إن السفر كان أصعب... كان الوصول لمطروح فقط يستغرق ثلاثة أيام سيرا، وفي بعض الأحيان كنا نركب فوق الشاحنات المارة مصادفة على الطريق الترابي... قال لي الشيخ عبد الله إن المرء كان يسافر لمطروح ومعه عباءة ثقيلة... لأنه كان ينام ثلاث ليالٍ في الصحراء.... هذا الطريق الجدب - يا مليكة - الذي قطعه الأتوبيس في أربع ساعات.. كان يستغرق ليالي ثلاثا... أسألها عن سيوة نفسها كيف كانت... تقول إنها تغيرت... أسألها: كيف؟ فيبدو الكلام لي عامًا أكاد أسمعه في كل مصر... الناس زادت.. قلت الأراضي... الأسعار ارتفعت... الخير جوه الناس قل.... فعلامَ كنتُ أبحث يا مليكة مادامت لم ترضِني تلك الإجابات؟ فهل كنتُ أبحث عنكِ؟

بالأمس... وقفت فجرا فوق شالي... لأرقب الشروق كما كانت تراه عيناكِ...

تعرفي يا مليكة أن الشروق عندكِ يختلف كثيرا عن الشروق الذي أعرفه؟ كان قرص الشمس أبيضَ قريبا... لا تشوبه حمرة... يسطع من خلف الجبل تدريجيا.... وتظل الشمس خالية من وهجها الذهبي كأنما تنضج.... حتى تبعد... ثم تغمر الواحة بالصبح المعتاد....

أعرف أن الشروق لم يتغير كما فعلت المدينة... فهل تصدقيني إن قلتُ لكِ إن البلدة القديمة ذابت؟

يقولون يا مليكة إن الطاعون هاجم سيوة وحصد منها من حصد... وفي نفس الوقت... كانت القبائل العربية دائمة التهجم على

الواحة... فتحصن أهل الواحة بالجبل... وبنوا على ارتفاعه مدينة شالي... ولما كان الملح هو العنصر الأغنى في الواحة؛ بنيتم مدينتكم بالملح... نحن نبني بالطين.. وأنتم تبنون بالملح... لم يكن ثمة خطر على مدينتكم التي لم تعرف الأمطار قط... يااا يا مليكة... أتخيلك الآن لو أنكِ عشتِ لتري السيل الكبير عام ١٩٢٦... في الشتاء يا عزيزتي أصحو أحيانا على دقدقة الأمطار على جهاز التكييف فوق شباكي... فأجري مسرعة إلى الشرفة.... أسحب سريعا طرحة الصلاة وألبسها لتغطي رأسي... أقف في الشباك وأمد يدي للخارج لتلمس الأمطار... يسرع الناس في خطوهم ولا أعرف لمَ يسرعون. أحب الأمطار يا مليكة وأحب رائحة الأرض بعدها... فكيف كنتِ ستشعرين إزاء المطر... وهو يدقدق بيتك دقدقات لم تعتدينها... فتخرجي لتجدي أن بيتك يذوب؟

لم يعد أحد يسكن شالي باستثناء بعض المنازل القليلة المملوكة في الأغلب لأسر أجنبية... أسرتان إنجليزيتان وأسرة دنمركية... لكن لم يزل الجامع العتيق قائما... ببابه الخشبي الصغير والدرجات القليلة التي تؤدي إليه... مئذنته قائمة تشبه برج حمام صغير أو مدخنة صغيرة... ومن أطلال البيوت القديمة المتبقية رأيت الشبابيك الثلاثة التي حكى عنها يوسف تزين واجهات البيوت... دوما ثلاثة شبابيك... ومن فتحاتها الصغيرة غير المنتظمة رأيتُ أثر يدك... يدوخني يا مليكة أن أرى بشرية اليد التي سوت جدران البيوت... اليد التي ربتت على الطين أو الملح لتسويهما في جدار... فبدت جدران البيوت في الريف أو الواحة مستوية بقدر ما وسع اليد والنظر من

الاستواء... تلك البيوت تشبهنا يا مليكة... لا تشبه فقط بصمات أيدينا... لكن تشبه سعيا دائبا خلف صراط مستقيم نسلكه... هل خلق الله لنا الطريق ليذكرنا بالطريق إليه؟ سبحانه خلق الطريق وعلمنا معنى الاستقامة في جذوع النخيل... في وجوهنا... وفي المدى....

في ساحة المدينة تغير شكل السوق كثيرا... لم تعد ساحة خلاء تأتيها قوافل الجمال للتجارة في أيام معلومات.... صارت أقبح... بالمحال الكثيرة التي تخدم السائحين أمثالي... لم تعد سيوة مكانا بعيدا جدا مذ شُق الطريق الذي يربطها بمطروح في ١٩٨٥ ... صارت تتصل بالقاهرة في طريق يستغرق عشر ساعات.... ومن القاهرة يتصل مكانك بالعالم... فهل خبرتِ العالم في حياتك يا مليكة؟ يقولون الآن إن العالم أصبح قرية صغيرة... فكيف كان صغيرا حين كان قرية صغيرة بالفعل، أم إنه يوما لم يكن مكانا كبيرا، أم هو كبير لكننا لا ندركه لأننا لا ندرك أنفسنا، أم هو نحن؟

كيف كان عالمك يا مليكة؟

عرفت أن ثوبك كان ملونا بمثل ألوان التمر في مراحله المختلفة.. أخضر وأصفر وأحمر وبنيا... فعرفتُ أنك عشت مفتوحة على النخيل والمدى.. ليس بين جدران أسمنتية كما عشت أنا.... وعرفت أن الفضة كانت تأتيك مع قوافل التجارة من المغرب... وأن رجلا هو الذي دق الرموز الدقيقة الجميلة عليها... فعرفت أن جمالا سكنه وحبا... وعرفت أن عباءتك الزرقاء التي كانت تغطي جسدك كله

جاءت من كرداسة... ففهمت أنك كنتِ تنتظرين القافلة التي تحمل لك الأقمشة... من الجيزة وليبيا والمغرب والعالم.... لعلك ـ يا مليكة ـ كنتِ تعرفين العالم... ولعل العالم وقتها كان أكبر من القرية الصغيرة المتشابهة....

لم أقابل يا مليكة امرأة سيوية غيرك قبل أم رُحيم...

يعمل رُحيم في أحد فنادق المدينة... وكان يعرف صفي من سفر سابق... دعانا للغداء مع أسرته وصحبنا في العربة الصغيرة خلف الموتوسيكل الذي يملكه.... خرجنا من المدينة وذهبنا لقرية أبعد... قال لنا إن أسرته كلها تعيش في هذه الأراضي.. بيته هنا وبيت أبيه إلى جانبه وكذا أخوته.... قدم لنا الشوربة بالنعنع ثم الغداء.... ودعاني لأقابل الوالدة... مشيت بخطى وئيدة خلفه.. أنتظر أن أراكِ في أي شيء... توقعت أن أرى انبهارا في عيني والدته وإخوته من الغريبة التي تسافر وتجلس في مجالس الرجال وتأتي من مصر... فلم أجد سوى عينين راسختين في ود... تدعواني للجلوس على كرسي كعادة أهل القاهرة... شيء ما داخلي أَمَّنَ وقَرَّ وتواضع احتراما... لم تكن أم رُحيم تلبس الأزياء التقليدية التي رأيتها في المتحف.. سألتها عن ثوبها.. قالت إن أثواب المتحف يلبسونها في المناسبات... لم تبدُ أنها زارت المتحف من قبل... لكنها عرفت ما قصدت من الوصف...

سألتني عن ماذا جئت لأعمل... أفصحتُ... هزت رأسها في تفهم... توقعتُ أن تكلمني عن الماضي الذي اندثر بعد شق الطريق بين سيوة والقاهرة.. أو عن ثقافتهم وتقاليدهم التي تتعرض للإحلال

بثقافـة المدينـة، أو عن اللغة العربيـة التي يتعلمهـا الأولاد في المدارس بدلا من السـيوية.... كل ذلك يا مليكة كان على أجندة عمل المعونات الأجنبيـة التي تعمل على حفظ التراث السـيوي بالواحـة... لم يبدُ كل هـذا مهـما لأم رُحيم.. على العكس.. حكت لي عـن الأرض والزيتون ومواسـم الحصـاد. لم تتكلـم عن المـاضي كشيء بعيد تتذكـره بحنين ـ كـما فعل أهل المدينـة ـ كانت تتكلم عن حياة متصلـة لم يكن بها طريق يربطهـم بمطـروح، ثـم أصبح هنالـك طريق واحد.. مـا الفرق؟ صار السـفر أسـهل... كانت تقول إن التغيير سـنة الحياة، وإن أشـياء تتغير وأشـياء تبقى ثابتـة.... صحيح أنهم صاروا ينامـون على الأسرة، لكن لا أحد يسـتطيع أن يجلب لهم سـفرة ليجلسـوا عليها وقـت الطعام... أشارت إلى الأرض وقالت إن تلك هي «القعدة السيوي».

كانـت يا مليكة مطمئنة إلى حياتها كما هـي... لا أحد يطمئن بغير قوة... كأنها تمسـك زمام الزمن بيدهـا.. أو كأنها تصادقه وتعرف أن تغييرا لن يطرأ عليها إلا إذا أرادت هي ذلك.

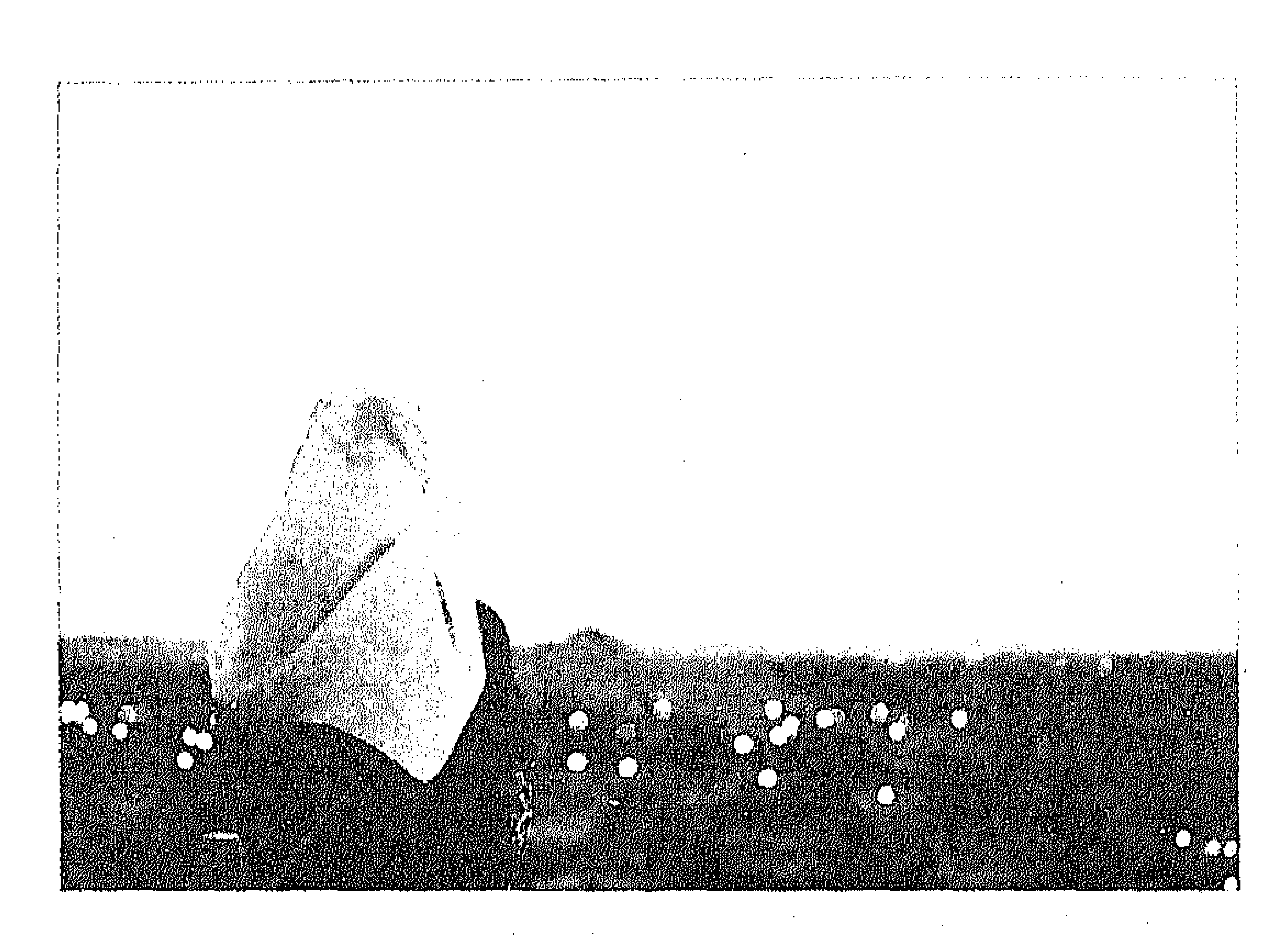
سـألتُ أم رحيم عنك فلـم تبدُ أنها عرفتـك... ولا عرفت الغولة... وحـين قامت ابنتها الصغـيرة وغابت عن عيوننا دقائـق ظننت أنها ملت وجـودي... ثـم عـادت وفي يدهـا عـود طويـل مـن النعنـع الفلفـي كما تسـمونه... مدتـه لي كهديـة.. فاحتضنتهـا... وحـين قمـت لأرحل... ضمتنـي أم رُحيـم وقبلتنـي قبـلات أربع مسـت فيها خـديَّ... فعرفت أنها أحبتني...

ظننت يا مليكة أنني وَقْتَ سأكتب لكِ.. أنني سأكتب عن الثقافة التـي ذابـت مثل ملح المدينة... لكننـي الآن أدرك أن الملح على حالته

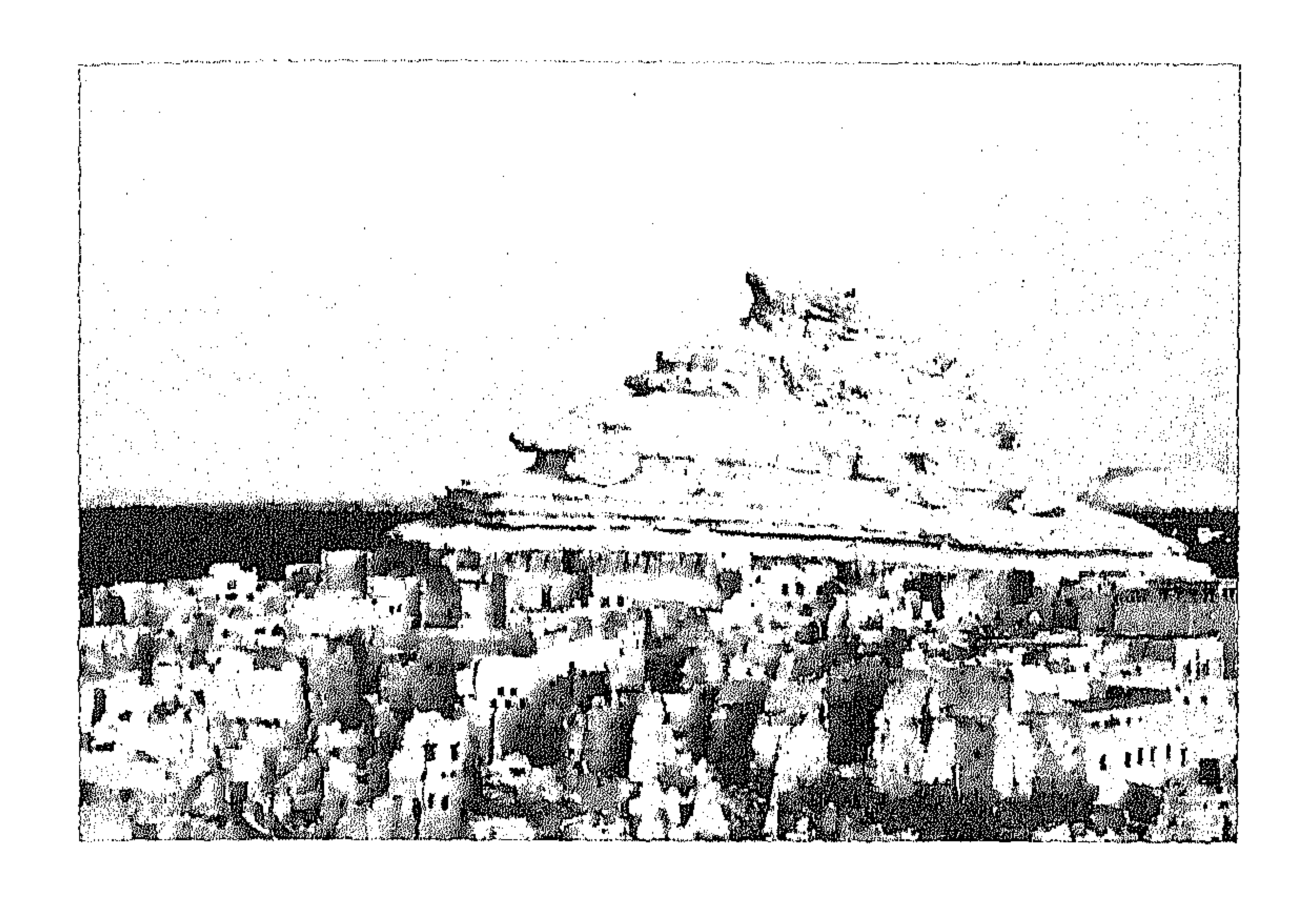
الصلبة لا قيمة له... كما التمثال في المتحف المهجور... لابد أن تذوب الحكاية في الحياة حتى تمر الثقافة... يصير لها مذاق ويصير لها امتداد...

أنا قابلتك يا مليكة... لكنك ما كنتِ ترتدين الفضة ولا الثوب الأبيض الذي قتلوكِ فيه... كنتِ سمراء صغيرة بعينين سوداوين جميلتين... ترتدين فستانا أصفر... تعلميني كيف أقول تلتشئ تكويس... وتمدّين لي يدك بعود طويل من النعنع.

نسمة

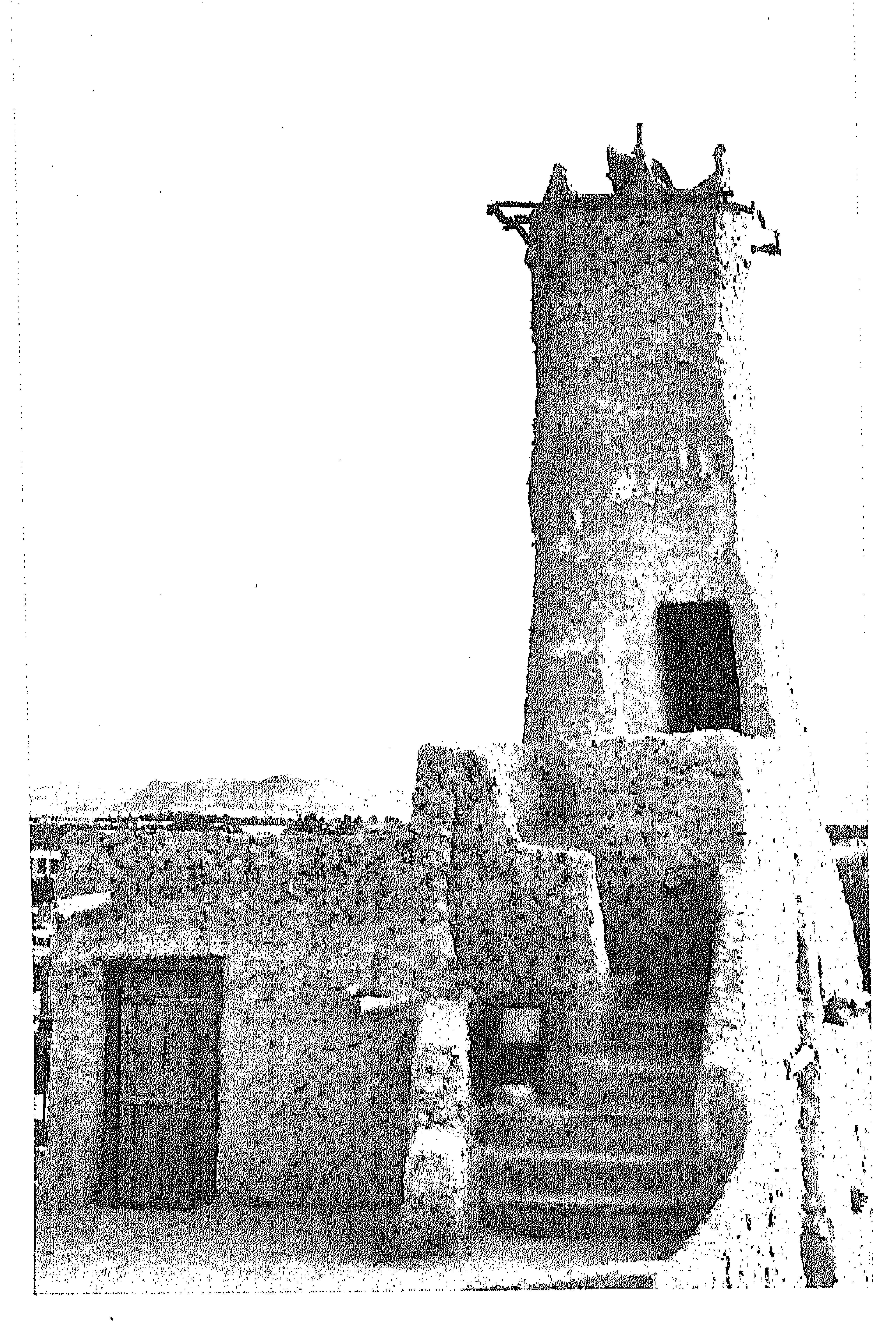


الفجر في شالي

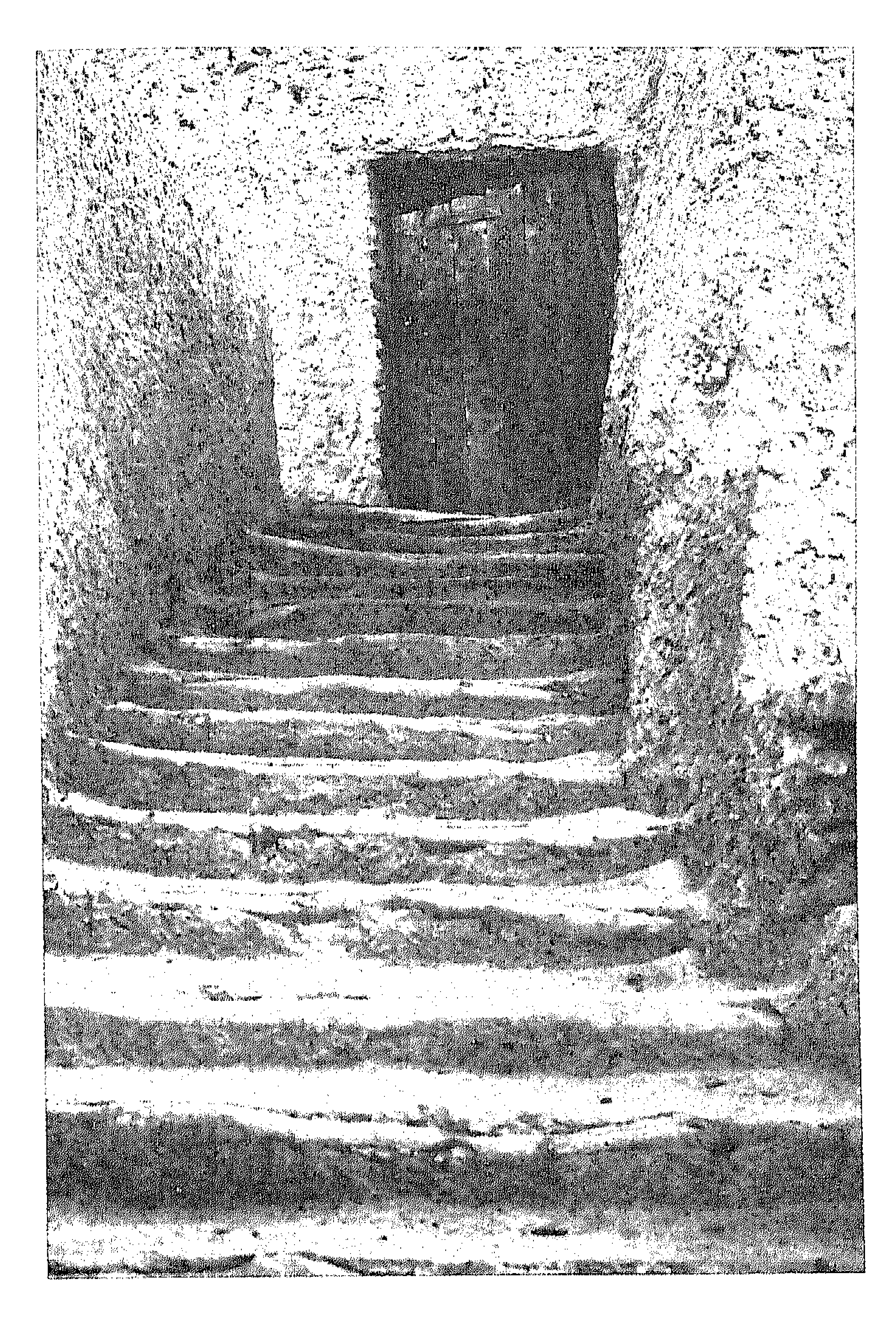




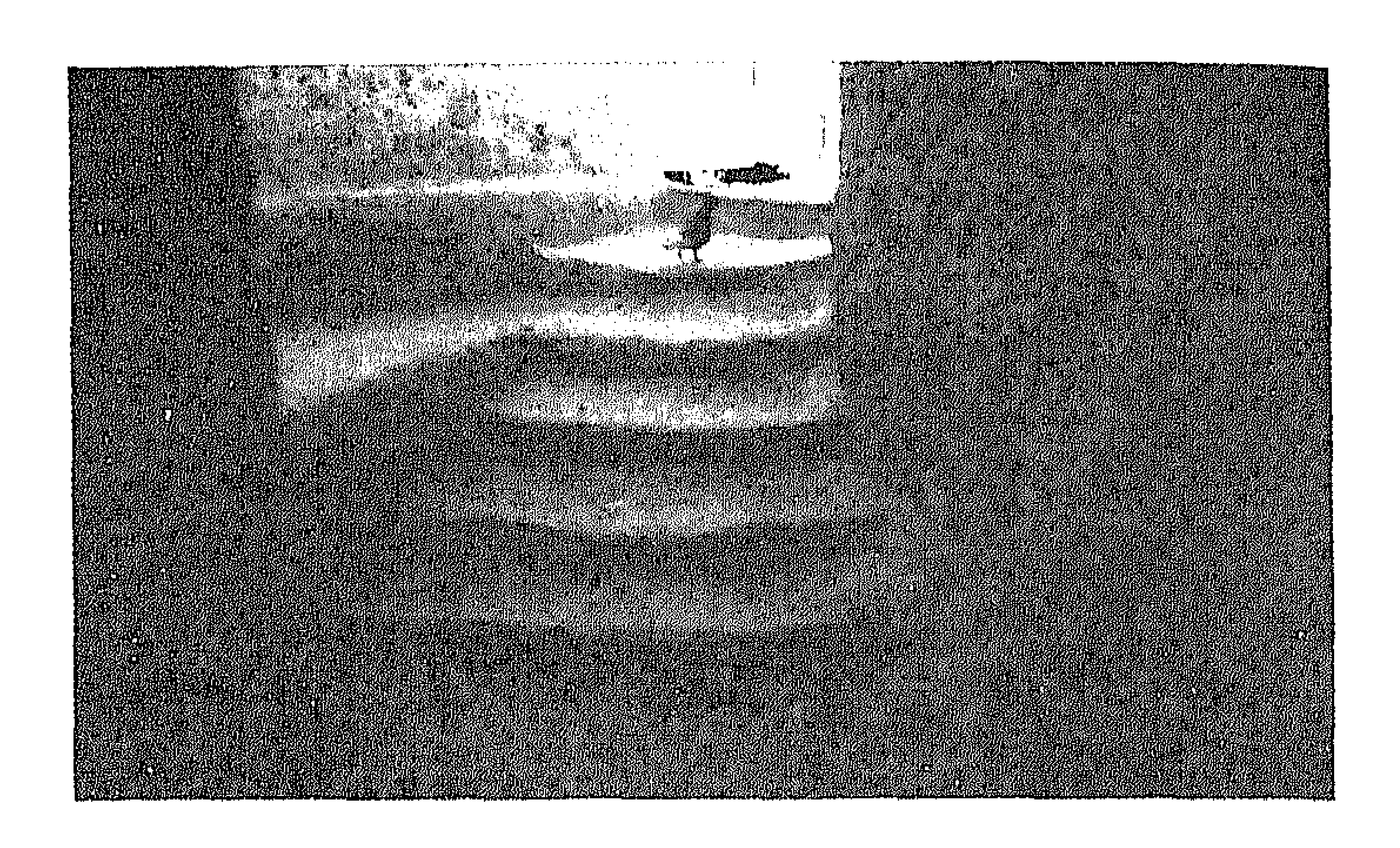
شالي ... المدينة الذائبة



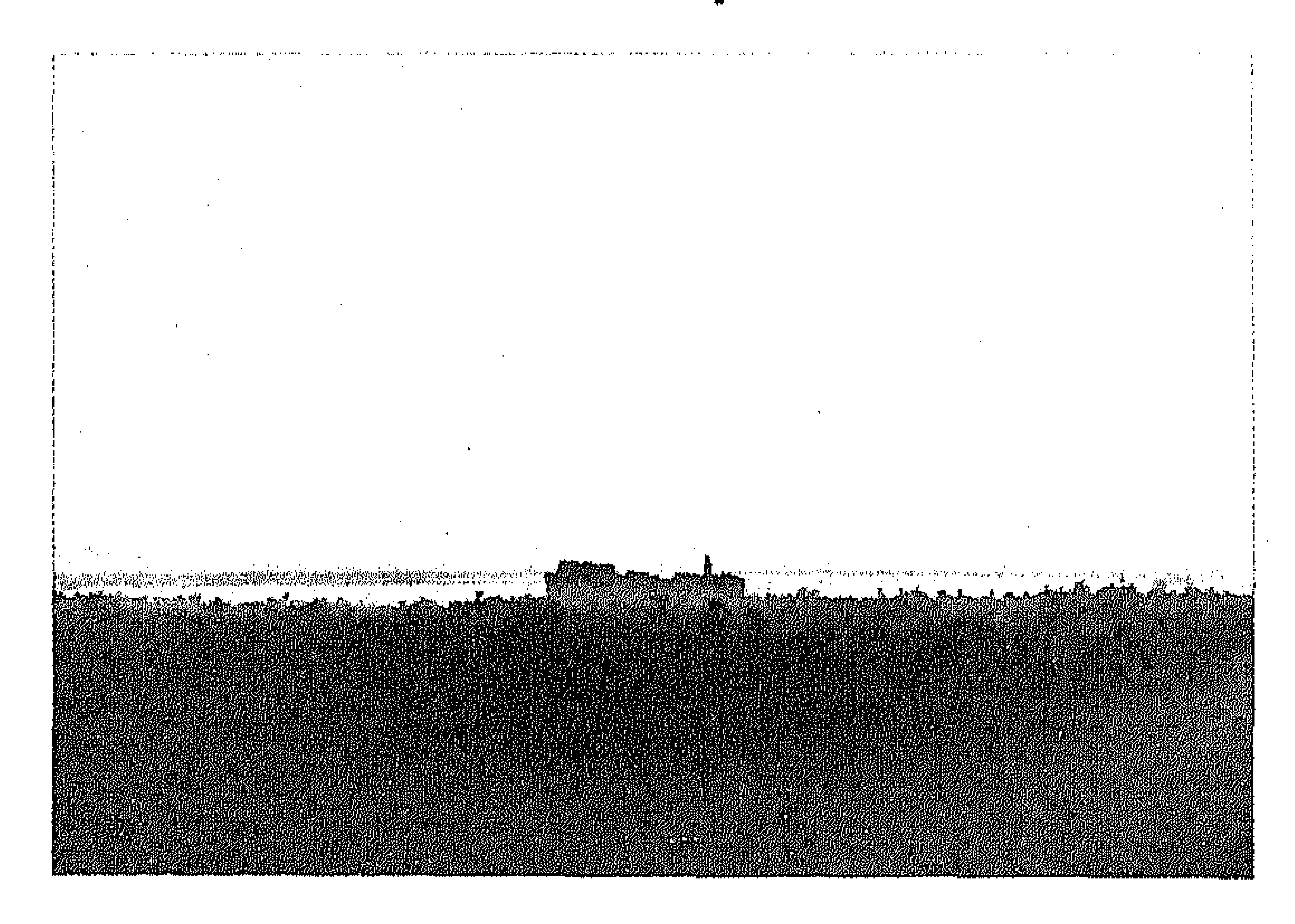
«بشرية اليد التي سوت جدران البيوت»



«بشرية اليد التي سوت جدران البيوت»



«بشرية اليد التي سوت جدران البيوت»



معبد آمون

٦

إرث الطريق



(أسوان- جزيرة عواض يونية- يولية ٢٠١٣)

«علمتني الحاجة صفية كيف أطهو الفطير والشعرية باللبن، وأن أشرب الشاي بحليب في الصباح بخمس ملاعق من السكر دون أن أشعر بالذنب.. ودون أن أفتقد القهوة. تعلمت كل ذلك منها دون أن نتكلم لغة واحدة.. هل كانت تحتاج للغة؟ كانت تضمني حين تريد أن ترحب بي... ثم تهمهم بشيء ما لا أفهمه بصوتها الرقيق المتهدج... ثم تزعق اسمي من المطبخ إن أرادت أن تعلمني أكلة ما... ولا تسألني إن كنت جائعة أم لا... تضع أمامي الطعام دون أسئلة، ثم تشهق وهي تقول: «يا ولاااادي» حين تجدنا لم ننتهِ حتى من نصفه...

كانت تستقبل القبلة وتصلي... ترفع أصابعها المخضبة بالحناء لله تسأله شيئا ما...

حين ودعتها.. استبقتني بصياحها.. وجرَتْ على عجل وأحضرت كوزا صغيرا به ماء... رشته في دفقات صغيرة بيديها خلفنا... ودعت لنا بالسلامة... تعلمت منها كلمتين... كانت حين تريد أن تسألنا عن حالنا تقول: «رَايجيين» (رائقين) وهي تحية نيلية جدا؛ إذ إن النهر يبدو بخير إن كان رائقا، والكلمة الأخرى هي كلمة ونس... حين حكت لي كيف أن زوجها حين تقدم لخطبتها سألها أن «يُوَنِسوا مع بعض... لعلها حين كانت ترفع يديها المخضبتين بالحناء كانت تسأل الله – من ضمن ما تسأله – أن يرزقها الرواق والونس».

عزيزي شهريار..

أعرف أن آخر حكاياتي لم ترُقكَ.. إذ لم تستسغ أن تحل محل السندباد البحري امرأة سندبادة.. يكون لها من الرحلات سبع وأكثر... بعضها خطير كما تصفه أنت... لست متأكدة تماما ممَ انزعجت... هل كنت تخشى عليها الطريق، أم تخشى عليها الرجال، أم إن إقدامها الهادئ حيرك... فلم تعرف في أي المواضع تضعها داخلك؟

ليتني أعرف كيف أنفذ داخلك يا مولاي وأنا أحكي لك...إذ إن نصف الحكاية أحكيه أنا... ونصفها الثاني يقع داخلك... وأنا التي ما شهدت ماضيك، لا أعرف مواطن ضعفك وحزنك... مقلّ أنت في حكاياتك عمّا يخصك... تحكي فقط إذا حكيت عن شئون المُلك التي ترهقك... لكنك لا تعطيني عينك لأرى كيف أحببت من أحببت... وكيف خانك من خان... وهل وسعت نفسك العالم كشيء جديد يحدث لك للمرة الأولى، أم إن ميراث الملك جعلك تستعدي كل ما خارج حدود المملكة، أم إن حدود المملكة بالفعل كانت تضمر لك العداء... فاهتممت بتحصينها جيدا حتى لا تنهار على من فيها؟

لو أن الأمر بيدي يا مولاي... لتسللت بك إلى واحدة من تلك الحكايات التي أحكيها لك عن سندباد أو سندبادة... ولخرجنا بغير حرس ولا سحر من الذي أنقله لك في الحكايات... السحر هو حيلة الضعفاء الذين ما جربوا أي سحر حقيقي وضعه الله في الحياة... وإن

كان سحر حكاية سندباد هو الخروج عن الواقع؛ فإن سحر حكاية سندبادة أنها اختارت أي واقع تريد أن تخبُره في الحياة... فكما أن كلمات المعجم تحوي الشر والغدر والخيانة والكذب والاعتداء... فإنها تحوي كذلك الخير والحب والثقة والأمان... المعجم واحد والحياة واحدة تحمل الأضداد وما بينهما وتمضي... الخير والشر كلاهما قدر الله ونحن دوما نسير بينهما... الإيمان يعطيك قوة في القلب أنك ماضٍ باتجاه قدرك.. حلوا كان أم مرا... ومن حكمة السير تدرك أن أقدار الله كلها رحيمة بنا حتى المُر منها... لأن وحده الله يعرف ما يسَّرنا له... ويعرف كيف يأخذنا نحوه.... درجتُ يا مولاي على أن أفهم الأقدار كمحطات نمر بها على الطريق... محطة تقود لها كل الطرق.. وأن جوهر حريتنا وحسابنا هو أي الطرق نختار أن نمضي فيه.. وكيف نختاره.. نحن المحدودون بستار الغد الذي لا ينكشف أبدا إلا حين يأتي.. خلق لنا الله السراب لنعرف أن سرابا قد يخدعنا... فنمشي حياتنا كلها خلف خرافة الأبد والاستمرار... الواقع الذي نتبعه لأنه واقع، يكف في لحظة عن الوقوع ويتبدل بآخر... ولا يبقى لنا سوى لحظة اخترنا طريق المسير لنُحاسب عليها... أين كنا نريد أن نذهب.. ولِمَ وكيف؟

و أنا بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد أن سندبادة متى أرادت الطريق.. دعت الله أن يصحبها عليه... تعرف أن الله يحب المسافر.. وأنه سبحانه حين أراد لعباده أن يتقربوا إليه؛ أجاز لعابري السبيل الصدقات... وهي لم تكن تبغي مالا قط... وإن كانت أسفار سندباد قد جعلته يجمع الماس من الوديان المسحورة؛ فأسفارها كانت

أبسط.... إذ كل ما كان يعنيها أن تُرزَق حكمة السير التي وضعها الله في السفر حين سماه سفرا / كشفا... وأن تشعر بصحبة الله لها التي تفقدها حين تكون وسط أهلها... لا لأن الله قد غاب... لكن لأن التعود على الأشياء والأشخاص يخلق داخلنا حسا زائفا بالأبد.... هي تسافر لترى الله.. وترى عباد الله... وتمتد من داخلها لصور من الحياة لم تكن تعرف عنها شيئا... فتهدأ وتقر...

هي لم تكن تعرف أحدا بعَوَّاض يا مولاي...

عَوَّاض كانت أرضا في أسوان على ضفاف النيل متصلة ببر السودان وبر مصر... ثم تحولت بسحر الحياة إلى جزيرة... لم يلعنها جان فتحولت ولا أغرقها الله... كانت أرضا حتى ضرب الملوك السدود من حولها[1]... أغرقها الماء فصارت جزيرة... وبسحر الحياة أيضا.. استطاع أهلها السير على الماء... فصنعوا قواربهم... وكانوا يخافون الغريب... فلم يسمحوا لأحد بالمرور إلى جزيرتهم المعزولة ما بين سدين إلا بإذن منهم... وسندبادة تركب القطار في طريقها إلى هناك... تسأل نفسها كما كان العالم كله يسألها.. وكما كنت تسألها يا مولاي... «ألستِ خائفة إن حدث مكروه هناك، أنكِ حتى لن تتمكني من الهرب؟».. هي تعرف أن صديقا لها له أقارب هناك... وأنه أوصاهم بها خيرا وإلا ما مرروها من الأساس... لكنها تعرف كذلك أن الأمان لا يوفره صديق بعيد.. الأمان صنعة الله... إن شاء رزقها إياه مع عباده وإن شاء منع... لكن الله لم يمنعها خيرا مع عباده قط من قبل...

---

(١) تقع جزيرة عواض بين خزان أسوان والسد العالي.

في بعض الأحيان يا مليكي... تكون غربتك رزقا...

أنت الغريب القادم من بلاد ما وراء السد... تنقصك لغة المكان وتبدو أعزلَ وسط أهله... فيأخذونك فور ما تأتي... يجوبون بك البيوت القليلة في الجزيرة... وتتعجب داخلك - أنت الذي جئت بمخاوف المدينة- كيف لأحد أن يستضيف غريبا لا يعرفه في بيته؟ ثم بتكرار السفر تدرك... أن بيوت المدينة هشة في غربتها عن بعضها البعض.... وأنه دوما سيلزمك أن تشعر بقوة أنك تنتمي لمكانك وجيرتك حقا؛ حتى تفتح حدودك لآخرين أن يمروا... دون خوف من أن يسلبوك شيئا كان لك...

تنام في الحجرة الشتوية في ليلتها الأولى هناك... خلف الباب تعرف أن أهل البيت ينامون تحت السماء... بالجو حرارة لا يطيقونها تحت سقف الغرف... عرضوا عليها أن تنام معهم... لكنها استأذنت منهم أن تنام في الحجرة وتغلق عليها الباب...

في ليلتها الأولى.. خافت أن تطفئ نور الحجرة... تركته مُضاء... لا تعرف ممَ كان سيحميها الضوء.. لكنها فكرت في الحشرات وظنت أنه ربما يمنعها عنها... نامت بنصف راحة... تعرف هذا حين تصحو لتجد أنها لم تتقلب في سريرها... غمر نور الفجر الغرفة فتيقظت... شعرت بالجوع.. من الخارج نادتها الحاجة صفية لتشرب الشاي بالحليب وتأكل معه «الجرجوش»... كان الجرجوش ناشفا فبلته في الشاي... كانت الحاجة صفية تبهرها بأنها متى شعرت هي بالجوع نادتها الحاجة صفية للأكل... وإذا نادتها للأكل وضعته

أمامها وتركتها.. حتى لا تشعرها بحرج الضيوف... أضافت تلك الملاحظة إلى كشكولها... فللمصريين دروبهم في الكرم... أمها تعد سفرة عامرة وتصر على أن تصب لكل ضيف في طبقه حتى لا يستحي أن يملأه... أهل القليوبية لا يعينون أطباقا لتأكل منها، وإنما الكل يوضع للكل ويأكل منه الكل... أهل سيوة يضعون أطباقا بأزيد من عدد الضيوف؛ حتى تزيد إذا ما رغبت في الزيادة... حين زارت المنيا كان ذلك في أسبوع الآلام... ولم يكن المسيحيون قد أفطروا بعد... ذهبت للسبوع في بيت عم حنا الذي لا تعرفه.. أبو مريم التي لم تكن تعرفها... صديقة سولا... فما كان منهم وهم المشغولون بتحضيرات السبوع إلا أن ذبحوا للضيفة دجاجة حتى تأكل... لأنهم قدروا أنها لم تأكل اللحم مذ زارت بلدهم.

في كل محطة في طريقها يا مولاي.. كان الناس يغدقون عليها بكرمهم وبصدق الود الذي خلقه الله ما بين المسافر والطريق... وفي كل ليلة أولى لها بالمكان الجديد.. كانت تُبقي النور ليؤنسها... ثم حين تصحو.. تشرب الشاي بالجرجوش مع الحاجة صفية.. أو تأكل في بيت عم حنا.. أو تعد طعام العشاء في بيت جوردن أو تجلس مع أم رحيم... كانت حينها تهدأ وتقر.. وتنام ليلتها الثانية متدثرة بدفء الناس... فتغلق نور الغرفة وتصحو لتجد أنها تقلبت في سريرها...

و حين تعود يا مولاي تكون قد حُمِّلت للأبد بنعمة الطريق...

نسمة



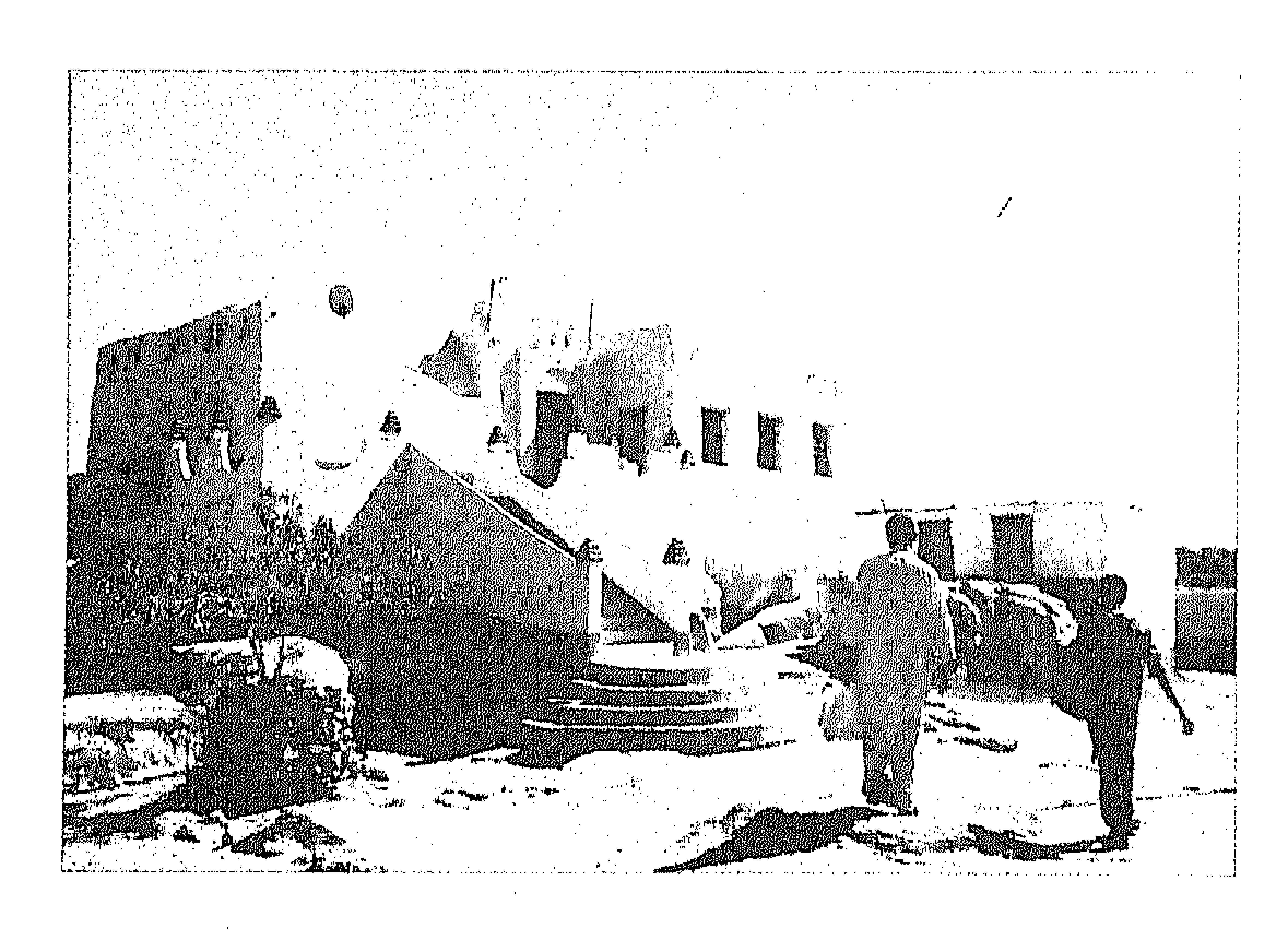
أسوان



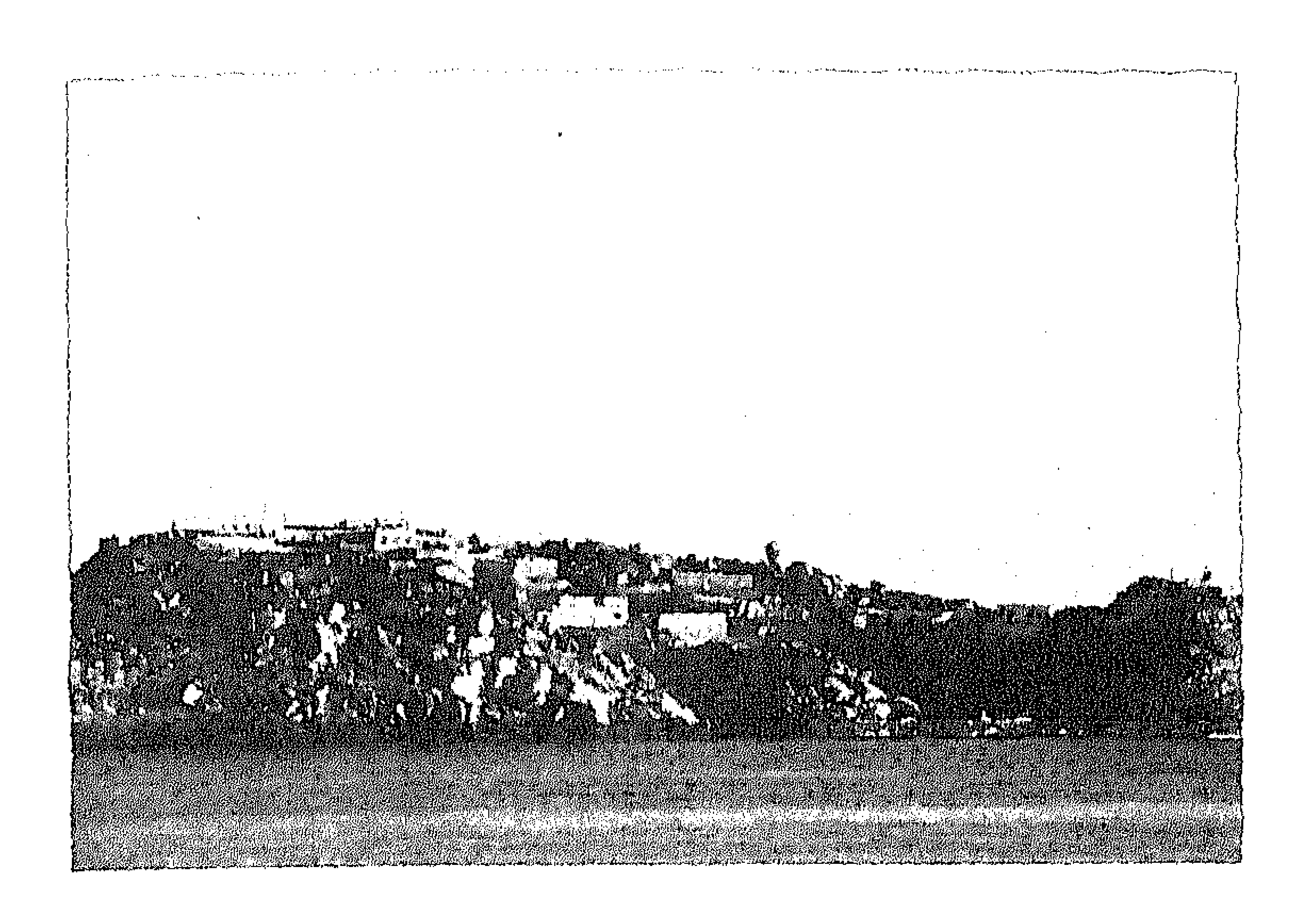
مهند.. الصديق والدليل



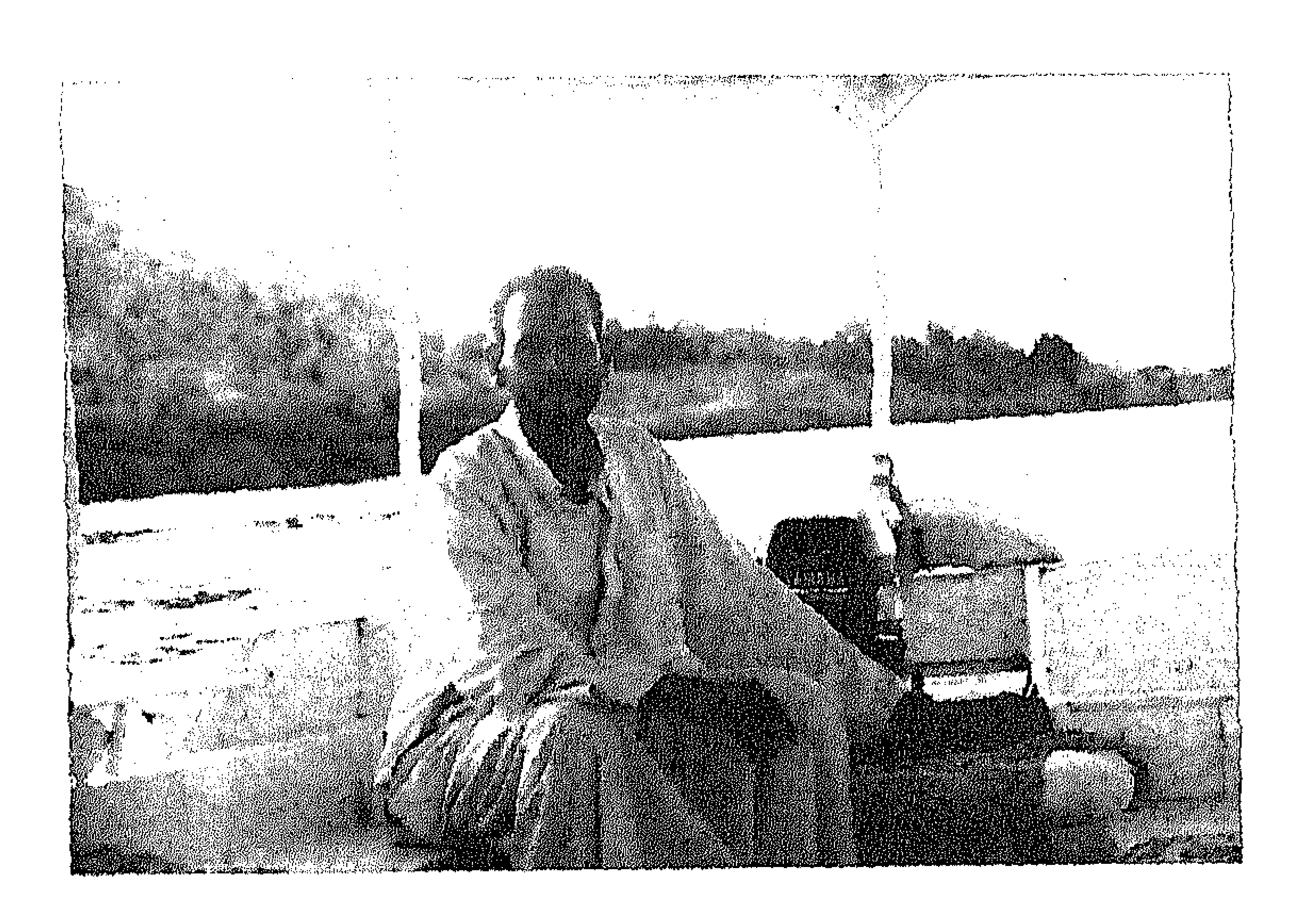
الحاجة صفية



بيت الحاجة صفية



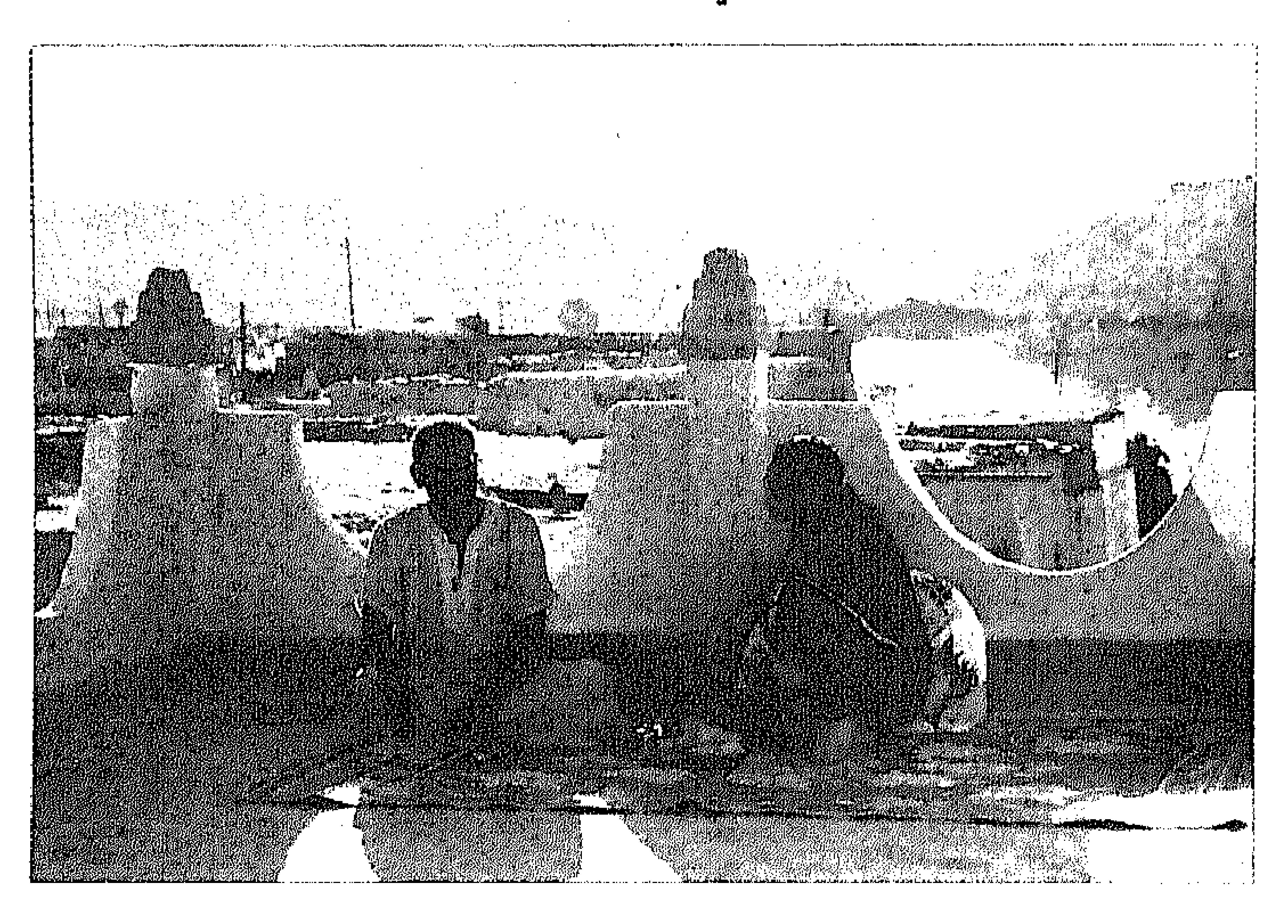
جزيرة عواض



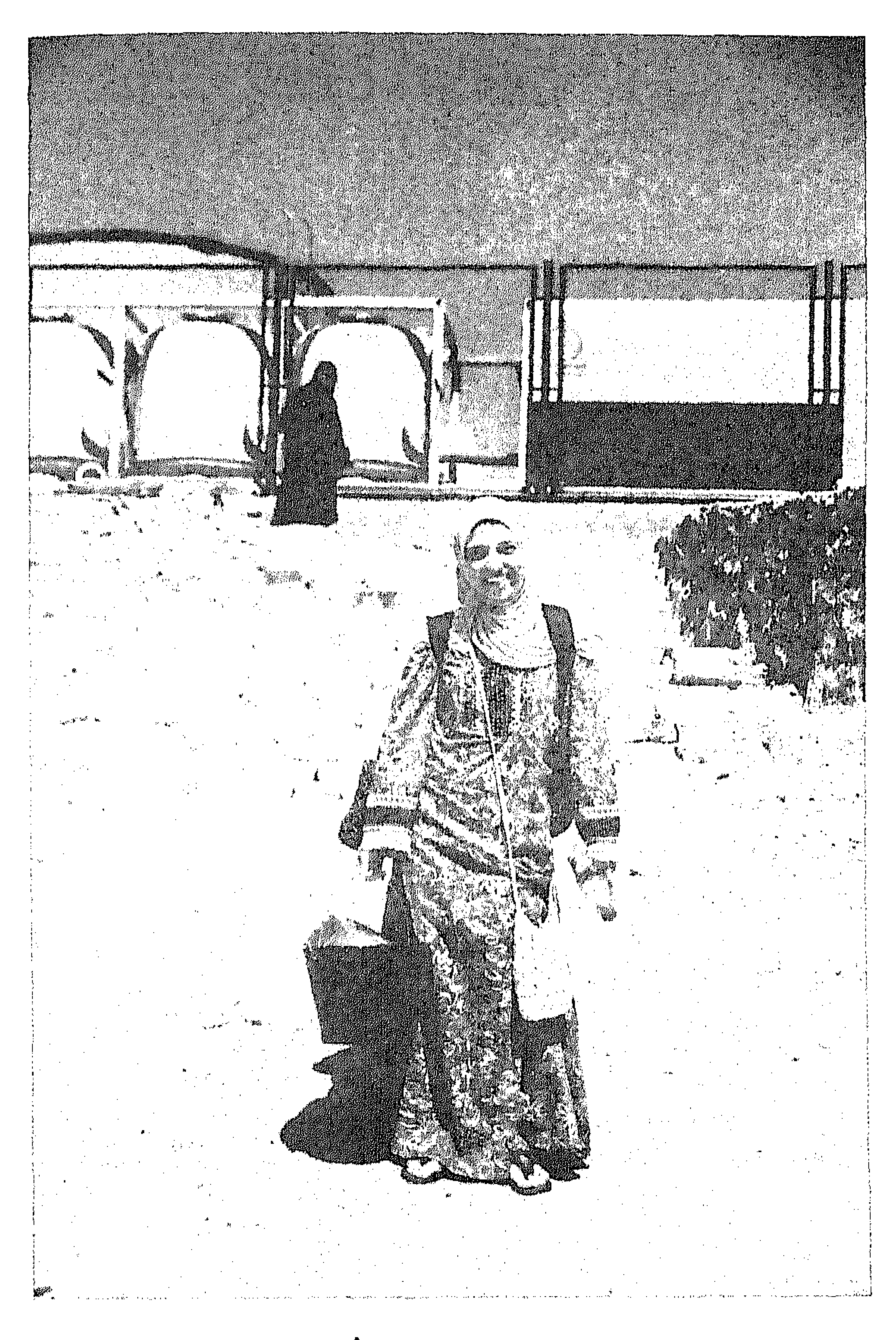
عم نميري



القوارب هي وسيلة الوصول للجزيرة.. الجزيرة لا يدخلها الأغراب.. وأهلها يتحكمون في حركة المراكب إليها.



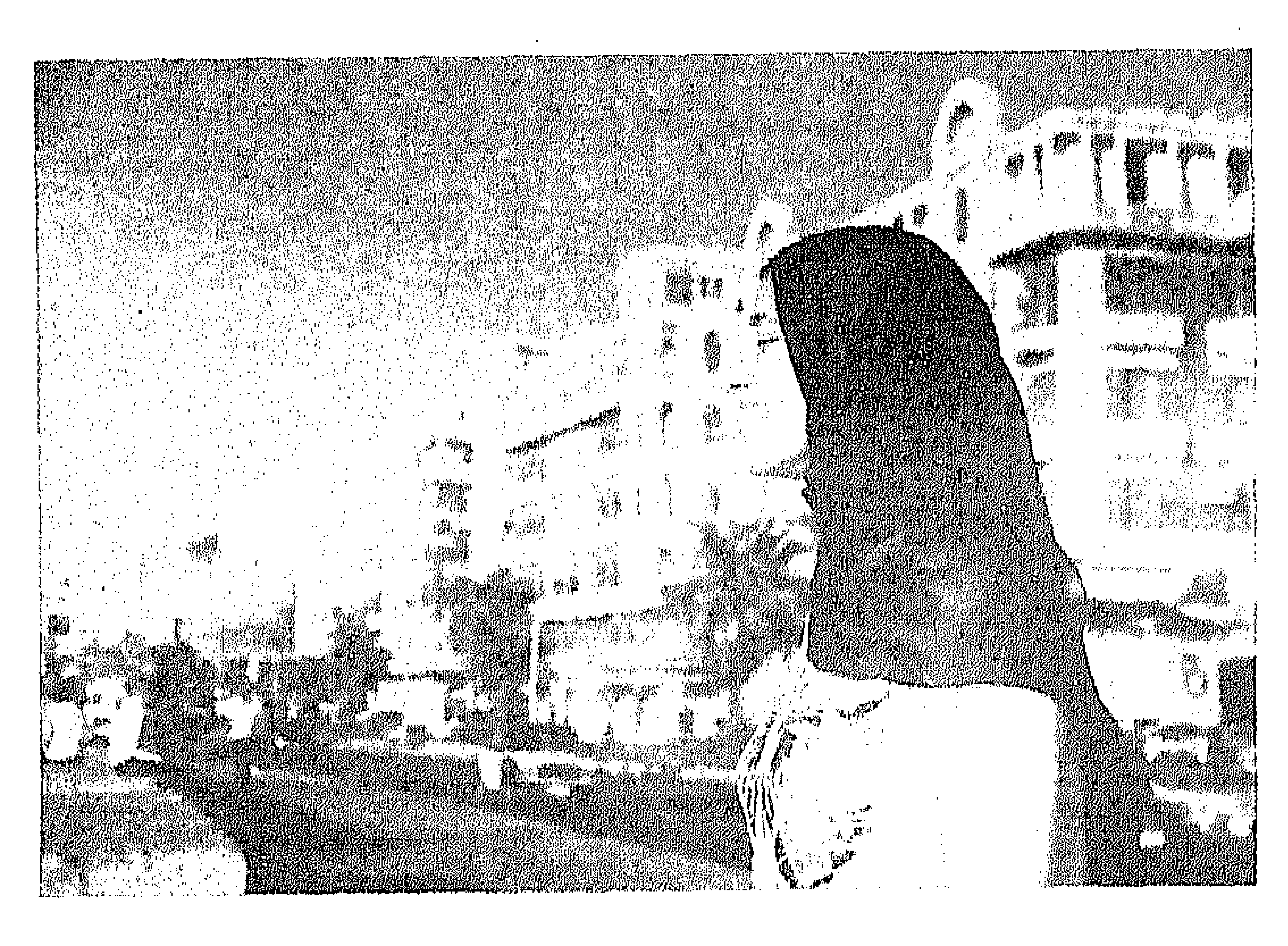
عيش وملح



«الرحلة» من جزيرة عواضٍ لهيسا

٧

إرث الخيال



(الإسكندرية/ محطة الرمل يولية ـ رمضان ٢٠١٣
على خلفية ٣٠ يونية واعتصام رابعة العدوية).

«لكـن الحنين الـذي أيقظته الإسـكندرية داخـلي أربكني حد أننـي كنت أشـعر أني أحمل امرأتـين داخلي.... واحـدة أراها في المـرآة حـين أطفـئ نور غرفتـي على ضـوء المدينة المـارّ من النافـذة... تنتمي لكل ما هو هنا... للزمن اليوناني المسـجون في حجرتهـا.. للتسريحـة البيضـاء والسريـر الأبيـض وشريط النقـوش عـلى الحائـط... وللبـاب الثقيل والهـواء الذي يهب ليحييهـا حـين تفتـح النافـذة.... وواحـدة تنتمي لنهـار هذه المدينة... تحكم حجابها حول رأسـها وترتـدي حذاء رياضيا يناسب جدول أعمالها الصباحي...».

حبيبتي نور..

أكتـب لك هذه الرسـالة ولا أعلـم متى تصلين لمـصر... أخفيتِ عنّـي موعد عودتك لتفاجئيني... ربما كنتِ الآن بالطائرة... ربما غدا أو بعـد غد.. لا أعرف يا حبيبتي... لكنـي فضلت أن أكتب لكِ قبل أن أراكِ... الكتابـة تضمـن لي ألا أنسـى... وأنا لا أريد أن أنسـى ما أكتبه لكِ الآن...

عام مر على سفرك لألمانيا... مازلت أذكر وداعنا... حين وعدتك أن أختـبر معاني مختلفـة في الحياة خلال رحلتي في مصر... ووعدتيني أن تصدقـي مع نفسـك أكثر في البعد.... فهل صدقـتِ؟ وهل نرى أنفسـنا أقرب حين نبتعد؟ لا أعرف... لم أجرب سـفرا طويلا بعد... كنـت أتمناه، ثم صرت أخافـه... ولكن يا حبيبتي، لـو ثبت أننا نرى حقيقة أنفسـنا أكثر في البعد؛ لتمنيت من الله أن تسـافر مصر من على الخريطة... وأن تقطن مسـاحة أخرى مـن العالم... ربما حينها تتمكن من رؤية نفسـها ورؤيتنا بشـكل أفضل... ربما نصدق في البعد يا نور أو نتآلف... وربما اخترنا عندها تاريخا لأنفسنا يقينا كل ما حدث...

أتخيـل أن قـرار عودتكِ لم يكن سـهلا يـا حبيبتـي.... ولوهلة... أشـفق على عينيكِ اللتيْن ستطالعان الشـوارع بعد عام من الغياب... هاتفتنـي مـن أيام لتسـأليني إن كانت الطرق لبيتـي مفتوحة أم لا... كنتِ تراجعين أسماء الشوارع كأنك ترتبينها داخلك... رابعة، مكرم عبيد، ميدان السـاعة... فأطمئنك أنني سأراكِ... كنتِ بعيدة بمسافة

قارة عن كل ما يحدث هنا حتى وإن وصلتكِ كل الأخبار... لكن ثمة مسافة ما بين عينيكِ وهنا.. مسافة تسمح لك بالخيال...

لا أعرف يا نور أي خيال أيقظته ماربرج داخلك... كتبتِ لي من قبل أن نافذتك تطل على الغابة... وأن الغابة يغطيها الثلج في الشتاء... فأي امرأة استيقظت داخلك حين كنتِ تطلين على المرج الأبيض؟ تعودت أن أقول لك إننا نكتشف أنفسنا بالسفر... كنت أعني حينها أننا نكتشف قدراتنا وحدودنا وما نؤمن به حقا... الآن أعرف.. أننا نكتشف خيالنا أيضا بالسفر... تستيقظ فينا صور لم نكن نعرف أننا نشتهيها أو أنها لنا... ولا أعرف يا نور... هل تكون هذه الصور هي الخيال المخبَّأ فينا، أم إن الأماكن توحي لنا بها؟

قبل شهر... زرت الإسكندرية يا حبيبتي... لم أكن متأكدة إن كان الطريق لمحطة القطار مفتوحا أم لا؛ حيث إن الاشتباكات كانت دائرة قبلها بليلة هناك.... حضرت أغراضي القليلة -دون شغف حقيقي- بالسفر... ثيابا عملية وحقيبة ظهر كعادتي... رائحة قنابل الغاز استقبلتني في محطة رمسيس.... لم أتعرف عليها في البداية... ظننت أن أحد الباعة بالمحطة يعرض بضاعة برائحة نفاذة... ثم تذكرت.. فأخذت طرف حجابي وغطيت به وجهي حتى دخلت القطار...

مقاعد الدرجة الأولى في قطار الإسكندرية مغطاة بقماش أسود به ورود صغيرة ملونة... ابتسمت إذ تذكرت رحلة عودتي من أسوان... كانت مقاعد الدرجة الأولى زرقاء عادية... وكان التكييف معطلا والنوافذ مغلقة وحر يونية لا يطاق... قضيت حينها أربع

عشرة ساعة في جحيم مكتمل... وكأن القطار كان يصالحني في رحلة الاسكندرية هذه... فأهداني الكرسي ذا الورود الملونة... وتكييفا باردا... والسيدة التي دخلت وجلست إلى جانبي...

سمراء كانت... بشعر أسود قصير متطاير... كانت ترتدي فستانا أخضر... الفستان بدا من زمن أقدم لكنه لم يكن قديما... شعرت أنها فصلته بيديها... وضعت حقيبتها تحت قدميها... فتحتها... أخرجت شالا صوفيا أخضر كذلك.. لفت به نفسها... ثم خلعت حذاءها وأفسحت لنظري أن أرى المانيكير الأحمر الذي كان يصبغ أظافرها... وضعت حاسبها الشخصي على رجليها.. فتحته... كانت تعمل حينا... وحينا تنظر من نافذة القطار... تمنيت أن أكلمها يا نور لكني لم أعرف بمَ أبدأ معها حديثي... لم تصادفني من هي مثلها على مر رحلاتي في مصر... ولم أستطع التخمين إن كانت تزور الإسكندرية أم تعود إليها.. حتى رن هاتفها... ردت... فاكتشفت أن لغتها العربية متكسرة على الرغم من ملامحها المصرية تماما.... فسافر خيالي معها عبر البحر يخمن من أين أتت.. ولمَ تعيش هنا...

غريب أمر البحر يا حبيبتي... ذلك النصف الخالي المفتوح على احتمالات اللقاء والفقد... وما بينهما مساحة من حنين ممتد... يخبئك خلفه كأنه يدخرك كمفاجأة... أنتِ وكل الغائبين... وللحظة أتخيل شعور أجدادنا في عصور سحيقة؛ حين لم يعرفوا أن خلف البحر أرضا... ربما كانوا يذهبون عند حافة الماء ظانين أنهم بلغوا طرف العالم....

هـل كان حـال مصر الآن يختلف - يا نور - لـو أننا كنا بالفعل في طـرف العالم؟ لـو أن نابليون لم يأتِ من البحر... أو لو أن الأسـطول الإنجليزي لم يعرف الإسـكندرية؟ هم عبروا إلينا، واستقروا هنا، ثم حين ذهبوا خلفوا خيالهم هنا يا نور.. هنا في رأسي....

❊ ❊ ❊

الكورنيـش يبـدو أجمـل في الفجـر... بعدمـا تنام ضوضـاء المارة والعابرين...

أخـرج لشرفتـي وأطالـع المدينة الغافيـة في نصف دائـرة... تحت البنسـيون القديـم الذي أسـكنه في محطـة الرمل... الـترام يمر خلف البنايـة القديمة... إلى يميني فندق سيسـل وإلى يسـاري وندسـور... وخلفهـما مقهـى تريانـون العتيق الذي جـددوه... زرته مـرة واحدة فقط منذ سـبع سـنوات حين كنت لم أزل في الجامعة... كانت نوافذه زرقـاء... تضفي على المشـهد بالخارج غمامة شـتوية أحبها... لازلت أذكر قهوته... وأذكر إحساسي وأنا أرفع الفنجان ببطء إلى شفتي.... شـعرت حينها أني أكبر يا نـور.... واحتفظت بـذات الخيال الطفولي إلى الآن... حتـى بعدما كـبرت... حتى بعدما جددوا المقهى وأخذوا عنه الغمامة الشتوية التي أحبها... لكن قلبي تعلق بالخط العربي الذي كُتب به اسـم المقهى... وبإيحاء القِـدَم الذي خلفه في نفسي.... كانت زيارتي للإسـكندرية هذه المرة في رمضـان.. وكنت صائمة... وكنت أمـر بالمقهى كل يوم صباحـا... فأعد نفسي بفنجان قهوة مسـائي... ويأتي المسـاء وأشرب قهوتي وحدي في شرفة البنسـيون.. لأني أردت

أن أزور المقهى وأنا متحضرة له كامرأة كبيرة... لا كفتاة جامعية.... وكنت كل ليلة أستحضر خيال السيدة في القطار... فأشعر أني أتلبسها.... أتلبس فستانها الأخضر وشالها اللذيْن أتيا من زمان قديم لم أعشه.. لكنني ورثته في جزء من وعيي بالمكان... جزء مخبّأ داخلي كان ينتمي لهناك... يمشي معي وسط العمارة الإيطالية التي تزين محطة الرمل... فيستحضر من داخلي امرأة لم أكن أعرف عنها شيئا...

حين زرت الصعيد وسيوة يا نور.. كنت أراعي أن آخذ معي في ثيابي بعض الجلاليب لألبسها هناك وسط الأهالي... حفاظا مني على تقاليدهم وحتى لا يلفظوا الغريبة الآتية من القاهرة... لكني حتى وأنا ألبس ثيابا قريبة من ثيابهم.. لم أكن نفسيا أنتمي للمكان... لم أشعر أن جزءا من وعيي يستحضر صورة معينة عن المكان أو يوقظ فيَّ شخصا آخر... كنت أنا أنا.... لكن الحنين الذي أيقظته الإسكندرية داخلي أربكني حد أنني كنت أشعر أني أحمل امرأتين داخلي.... واحدة أراها في المرآة حين أطفئ نور غرفتي على ضوء المدينة المارّ من النافذة... تنتمي لكل ما هو هنا... للزمن اليوناني المسجون في حجرتها.. للتسريحة البيضاء والسرير الأبيض وشريط النقوش على الحائط... وللباب الثقيل والهواء الذي يهب ليحييها حين تفتح النافذة.... وواحدة تنتمي لنهار هذه المدينة... تحكم حجابها حول رأسها وترتدي حذاء رياضيا يناسب جدول أعمالها الصباحي...

هل الأزمة في مصر الآن هي أزمة خيال يا نور؟ ثمة ما يدفعني لأن أفكر أن الاقتتال الدائر في الشوارع والذي قد يمنعني أن أراكِ،

هو قتال على الخيال بالأساس.... أشعر أن المدينة الآن تستحضر في أماكن متفرقة منها صورا مختلفة للخيال الذي خلفه آخرون لنا... ولو أنك كنتِ هنا وشاهدتِ معي بعد الثلاثين من يونية مظاهرات الاتحادية ومظاهرات رابعة... لشعرتِ بما أقوله لكِ الآن... المدينة تستحضر صورها كلها في آن... الصور المتراكبة دهرا قررت أن تنفصل وتنتمي خيالا لأزمنة أخرى وأماكن ليست هنا من قبل الطرفين... وأنا لست أعرف لماذا لا يحضر فينا الحاضر بقوة حضور الخيال... ولماذا تهدر الدماء في صراع من الطرفين على خيال يحاول كل منهما أن يفرضه على الآخر؟

السفر - يا نور - يجعلنا نكتشف خيالا يسكننا.. رسمه الأدب أو الاستعمار... وأنا لا أعرف أي خيال تحرك فيكِ حين كنتِ تطلين على المرج الأبيض... ولا أعرف أي خيال ستتنازلين عنه أو يُبعث فيكِ حين تعودين إلى هنا... الحرب أيضا يا نور تكشف لنا خيالا يسكننا... ووقت التدافع نستحضر صورا من كل ما قرأناه وسمعناه وانتمينا إليه... والتدافع يكون على صورة في الرأس.. ربما تكون عادلة أو ممسوخة... لكن أسوأ ما قد يحدث لنا... أن نتقاتل على الصورة الخطأ.

* * *

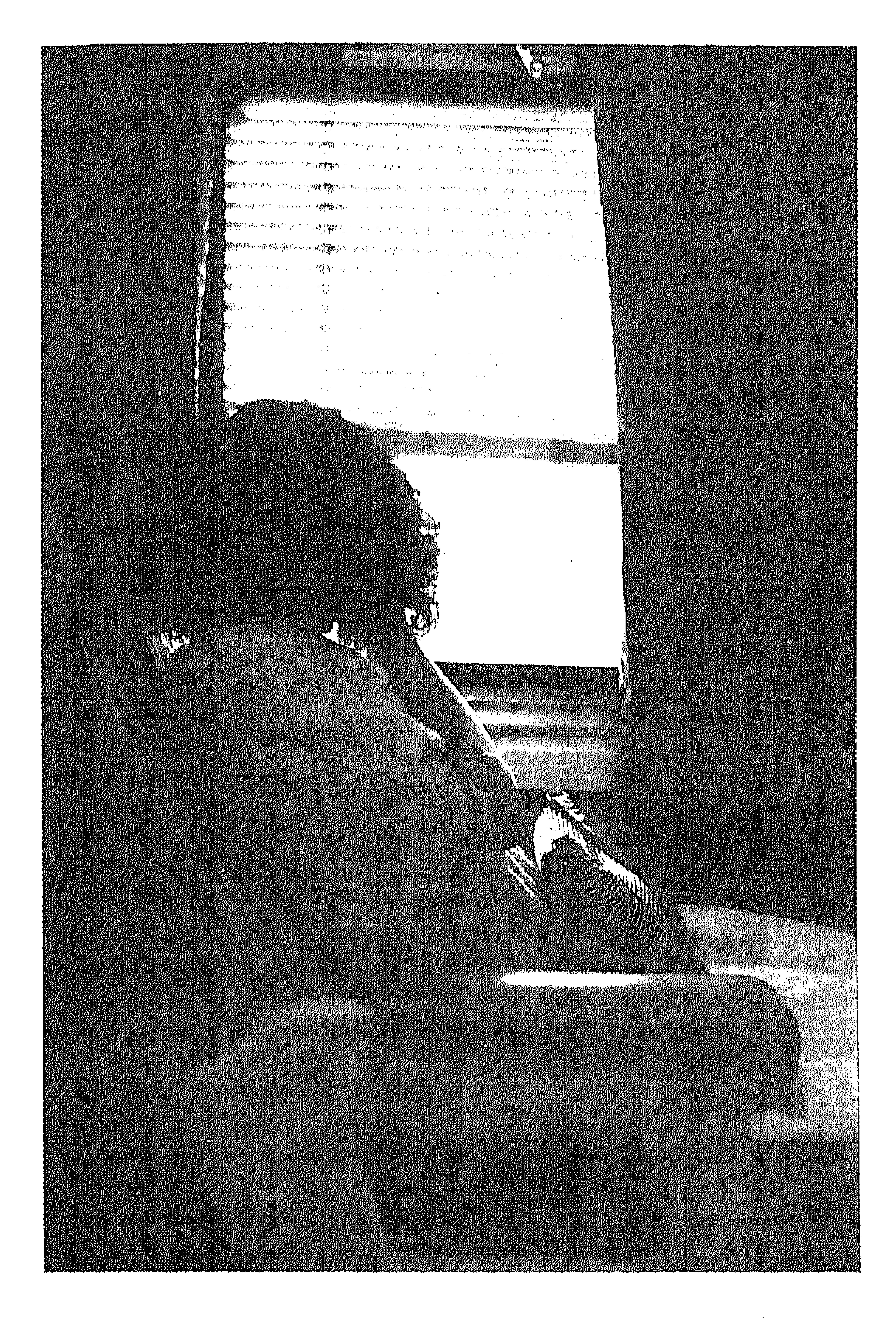
أشعر بوخز يا حبيبتي...

إذ إنني لا أستطيع أن أنفصل عن خيالي... ولا أظنه مفيدا من الأساس أن أتخلص منه... لكنني على الأقل أعي أنه لا يخصني

وحـدي... وأعرف... أن أزمنة لا تخصني شـكلته... وكبر في أماكن لم يزرهـا قـط... بعضهـا غـير موجـود من الأسـاس... وهـو خطير بحيث يحكمني... وخطـير بحيث يحكم الآخر... وهذا يحدث طول الوقـت... في البيـت أو في الميـدان... ولا أعرف يا نـور... أهذا قدر الشـعوب التي تقع في وسـط العالم، أم هو قدر المسـافر الذي يتكشف خياله بالعالم، أم هو اختبار الله لنا.. أن نقف عند حدوده مهما اختلفت صورنا المتخيلة عن الواقع وعن أنفسنا؟

الواقـع يا حبيبتي يصيبنا دائما فلا تهـربي... واخلقي حيزا لخيالك المُخبَّأ فيـكِ ليحيـا... ودعي الحياة تسـتحضر منك مـا يلائمها... واعلمي أني أحبك... مهما اختلف الخيال ما بيننا...

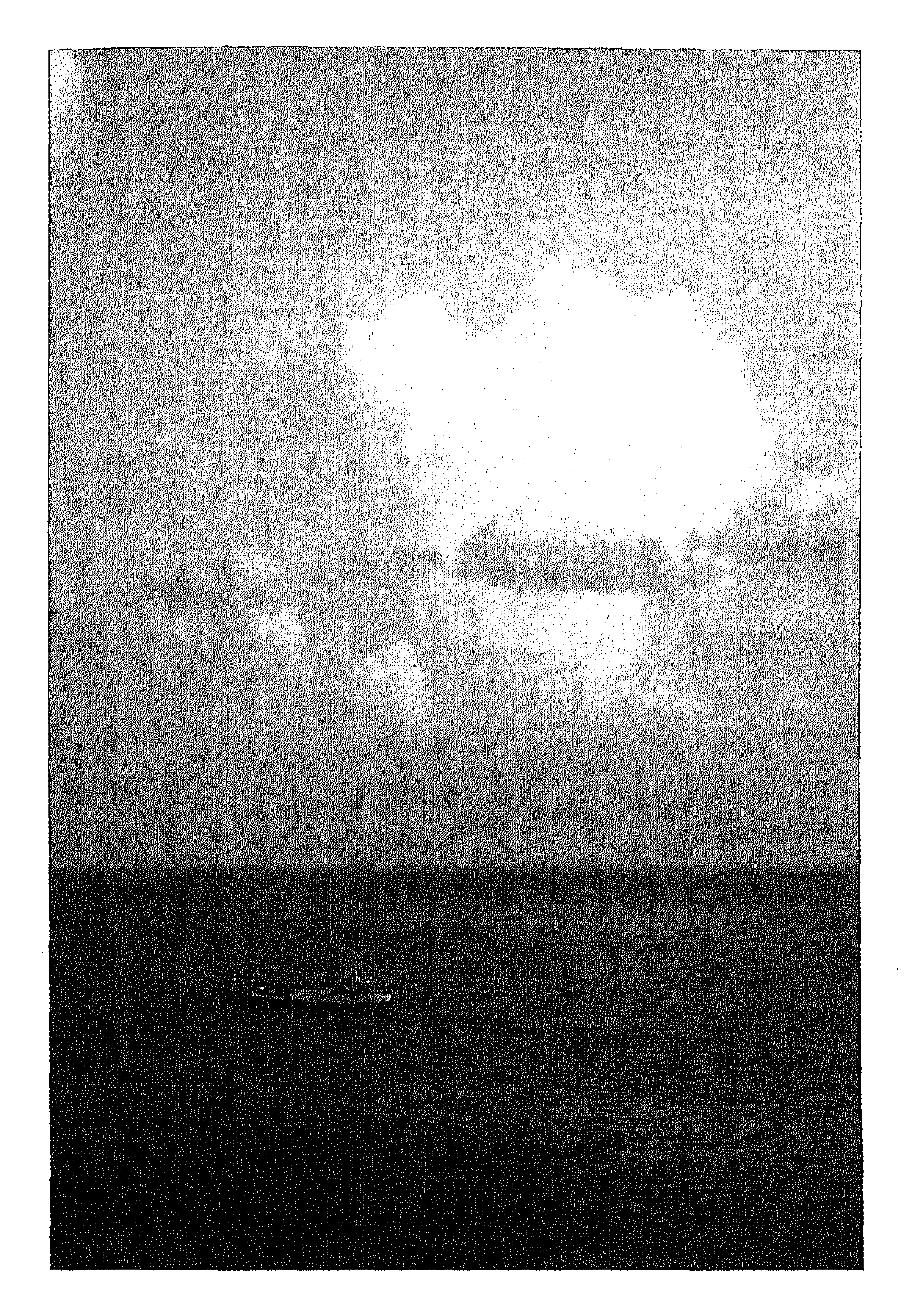
نسمة



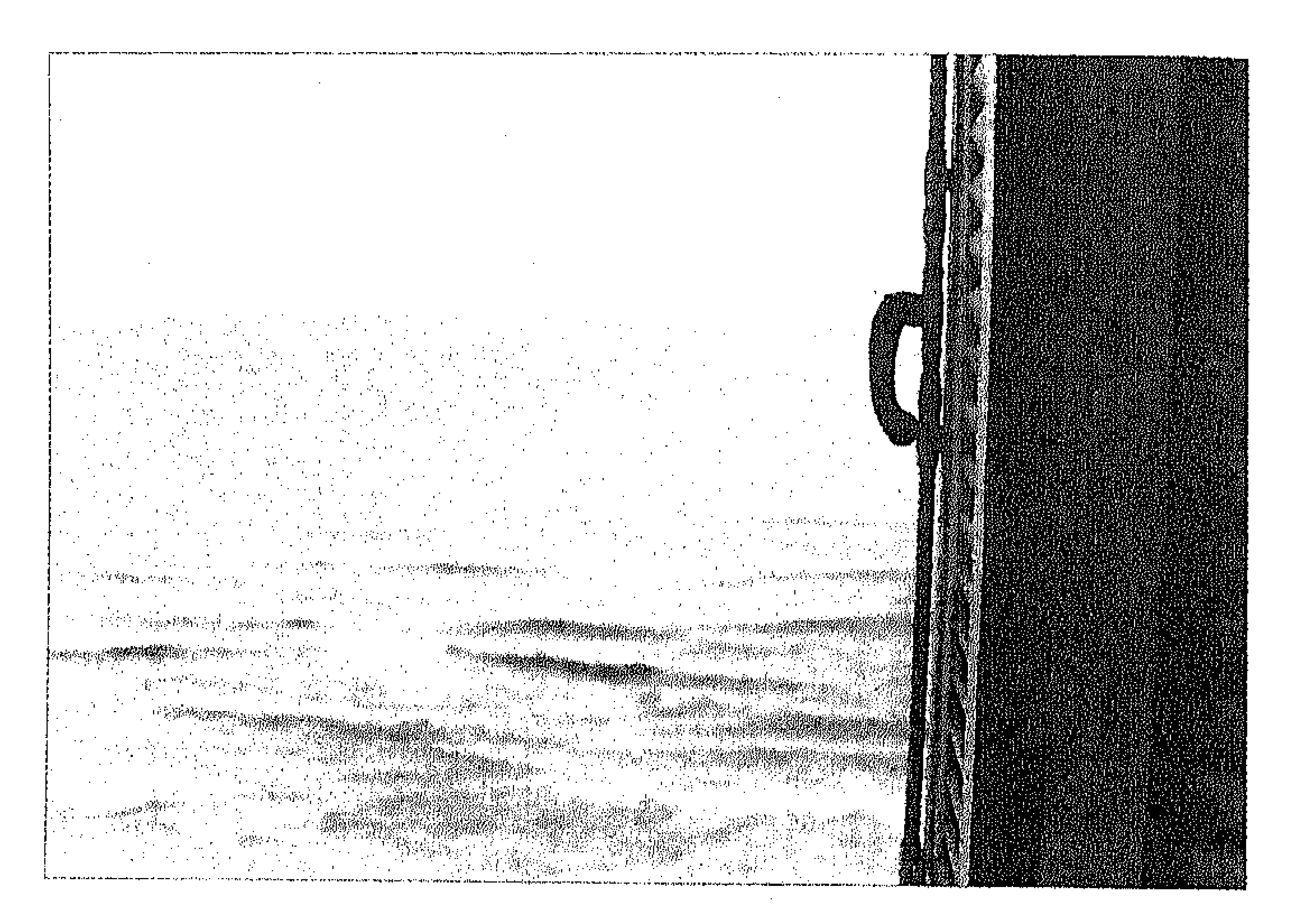
جميلة القطار



براح ...



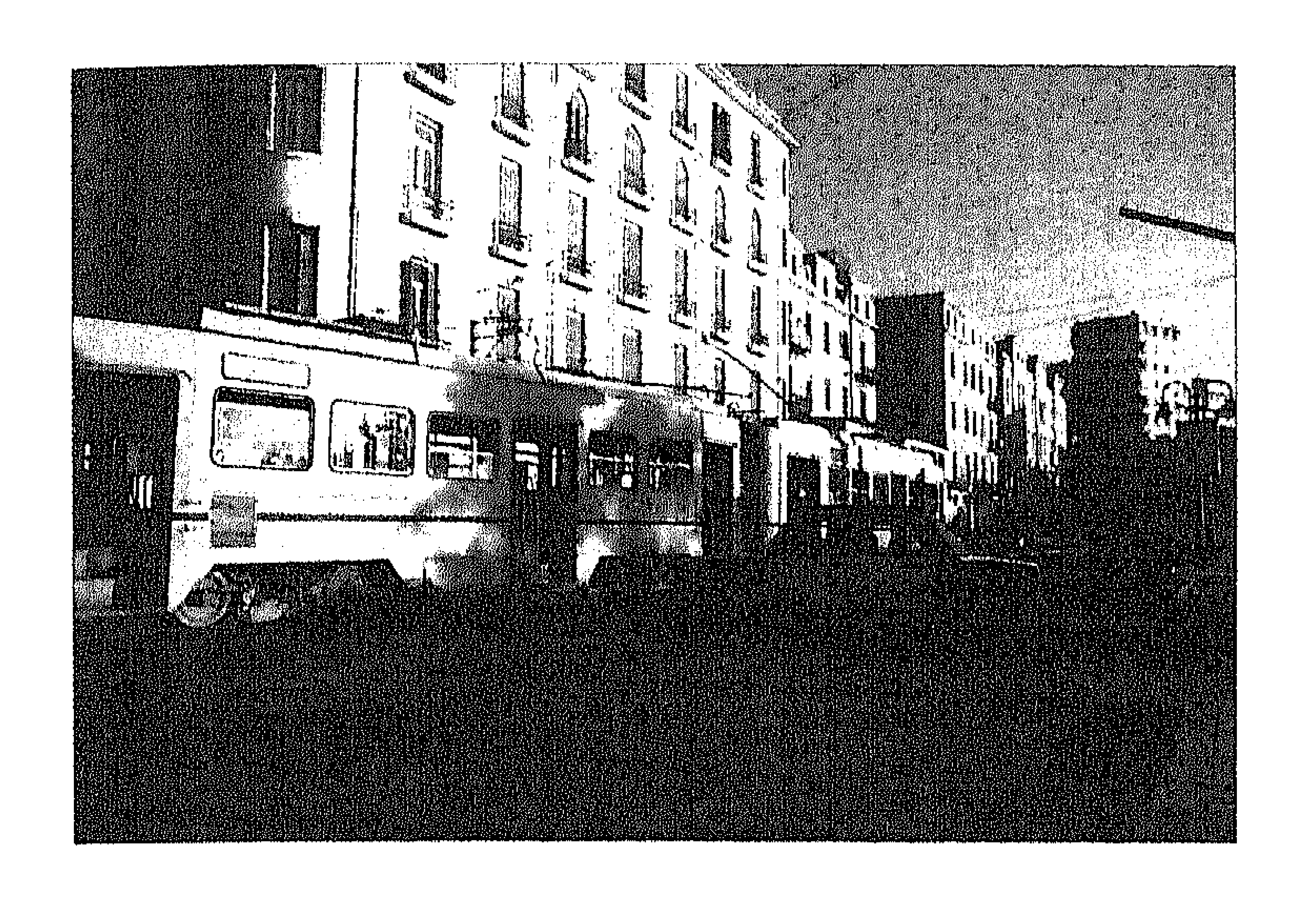
«البحر» و«البراح» حروف قريبة وروح واحدة

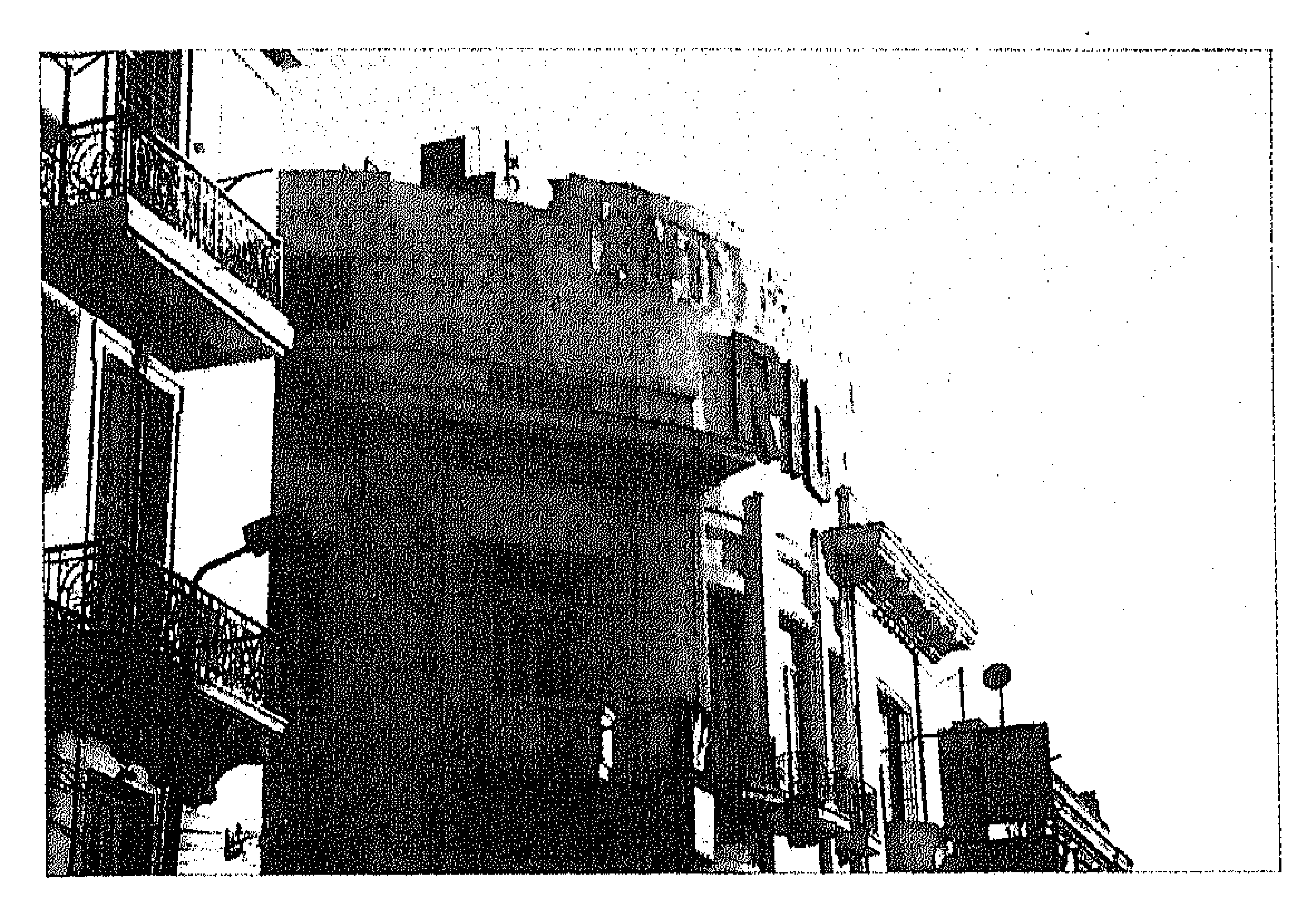


«البحر» و«البراح» حروف قريبة وروح واحدة



عمارة الإسكندرية





عمارة الإسكندرية

٨

إرث البشر



«يا رب..

عطاياك كثيرة..

ويداي صغيرتان..».

طاغور

عزيزي مهند..

تقـول الأسـطورة.. إن البنـت كانـت تكتـب ثـم نسـيت.. أو بالأحرى.. كانت الكتابة تحرر الوجع فيها.. فكفت عنها.. واختارت أن تبدأ حكاية أخرى لا تشبه حكايتها القديمة في شيء...

و لأن الله هـو الـذي يكتب كل حكاياتنا ولأنه سـبحانه لا ينسـى ولأن بيـده الأمـر كله؛ فقد رسـم لطريقها الجديد أن يكـون كالدائرة الكبـيرة.. تقطعه لتُوغِل في الابتعاد عـن طريقها القديم؛ فتقترب من حكايتهـا الأصليـة من حيث لا تـدري. ولأن أسـاطير الطريق دوما تحتاج لرفقة، فقد رزقها الله «إيمان» التي كان لها من اسـمها نصيب.. فـكل إيمان يقتـضي التصديق بشيء لم تـره.. وإيمان كانـت تصدق أن البنت يمكنها أن تكتب دون أن ترى ذلك حقا.

تقـول دوما يا مهند إن الكنز في الرحلة... وهي دوما كانت تقول إن البـشر هـم ثروتها الجميلـة... الآن تدرك أن قيم الكسـب السريع في مجتمعها تُفتت مفهوم الرحلة كما خبرته هي... فالكسـب الحقيقي ليـس أن تجد مكانا في عالم رأسـمالي خانق.. ولكـن أن تجد مكانك... ومكانـك لـن تجده إلا بمعرفـة نفسـك... والمعرفـة في الرحلة.. هي كنز الرحلة...

كـم محطة مـرت بها على الطريـق لكي تصل لطريقهـا؟ نعم الله لا تحـصى؛ لذلـك لن تحاول إحصاءها هنا... كما أنها لا تحب أن تشـارك قصصهـا الصغيرة الحميمة مع الجميع... تفضل أن تُبقى كنزها هنا..

في قلبها... لكن ما تود أن تشاركه معك.. هو أنها بمجرد الوصول لبداية طريقها هي.. وجدت الطريق قفرا مخيفا...

تعلم هي يا صديقي أنك الآن تقف على ذات الطريق القفر المظلم.. طريقك أنت.. لذلك قررت أن تكتب لك...

كان بإمكانها أن تتجاهل طريقها هي... وتدور في ذات الطريق الدائري مرارا وتكرارا لأنها تعرفه... لكنها تذكرت ما علمها إياه «كامل» قبل أعوام في سوريا.. حين قال لها: «اختبري حدودك»... فخطت خطوة أولى مترددة... تقدَّمت لنيل جائزة المنح الإنتاجية للكتاب الشباب... ثم حين فازت.. خافت... لم تكن تعرف ماذا بوسعها أن تفعل... كان معها شيء من المال، لكنه لم يكن كافيا لرحلتها أن تتم... فنبتت «آلاء» على طريقها كوردة صغيرة... أخذتها «آلاء» «لأحمد»... و«أحمد» استمع لها.. وصدقها... وفرغ لها ثلاثة صباحات و مساءيْن ليعرفها إلى «لبنى» و«شيرين عبد الباقي» و«هند»... قابلتها «شيرين» مرتين... في الثالثة قالت لها.. سأدعم الرحلة أنا وقريبة لي، لكنها رفضت الإفصاح عن اسم قريبتها في البداية.. وبانتهاء الرحلة قالت لها اسمها.. «مايرا».. مصرية تعيش في أمريكا... فلم تفهم الصبية.. كيف يجتمع قدرها مع قدر من لم ترها ولا تعرفها... ثم سلمت أنها تعيش في مُلك الله.. وأنه سبحانه يرتب الأمر كله...

ضحكت.. وقالت لأمها: «فزت»... فوجمت الأم... سنة من السفر في مصر في ظل غياب أمني شبه كامل أمر صعب... ولم تكن

أمها تختلف عن أغلب الأمهات المصريات من حيث قلقهن على بناتهن... لكنها كانت بالتأكيد تختلف لأنها سمحت للأمر أن يتم برغم خوفها الشديد... حتى إنها كانت في أوقات تخشى أن تتصل بابنتها على الطريق.. لأنها كانت تخشى أن تكتشف أن مكروها أصابها... لكن الله لم يقدر شرا...

أما أبوها الذي شارف على السبعين... فكان يحب أن يصحبها على الطرق التي لم يكن القطار يعرفها... وكانت الرحلة تمتعها؛ لأنه كان يحكي لها عن نسبها الذي لا تعرفه... كانت مصر تبدو منبسطة على كف يده وهو يحكي لها عن خبرته بجبال سينا وأسوان... كانت تمتن له ولا تعرف كيف تعبر عن ذلك.. فتطبع قبلة سريعة على خده حين تصل ويودعها.. ويقطع هو الطريق مرة أخرى وحده...

خطت خطوة أخرى على الطريق المجهول... لا تعرف عَمَّ تبحث ولا في ذهنها سؤال... فتعلمت أن الأسئلة أهم من الإجابات... وهي لكي تجد سؤالا واحدا تسأله، سافرت لثلاثة أماكن... ضحكت من نفسها.. وتقبلت الطريق وما يأتي به إليها...

أتى الطريق بسيف وصفي فرافقاها... هل كانت رحلتها تتم دونهما؟ «منير فاشة» علمها من قبل أن تغير التقاليد بطرق تقليدية... ثقافتها لا تقبل سفر البنات بسهولة... التقاليد تقتضي أن تسافر البنت بصحبة رجل... والرجلان كانا يجلسان عنها في مجالس الرجال.. ويتحملان مشقة التصوير حين يتشكك الناس بالقادمين الذين تشي الكاميرا بغربتهم....

عـادت... كانـت عندهـا مجموعـة حكايـات مبعثـرة... حكايـة الطريـق وحكايـات الناس المختلفـة الذين صادفتهـم.. كانت تائهة وعاجزة عن النظم...

نظرت البنت إلى أوراقها.. سألت... ما الذي تعلمته من رحلتي؟ كتبـت في نقـاط... نبتت «نور» شـجرة أخرى على طريقهـا... «نور» قالت لها: «اكتبي جوابا في آخر كل فصل لأحدهم»... فكتبت فصولها كلها للناس وعن الناس... بدأ الطريق يزهر... واخضر بناسه الذين صادفتهـم وصاحبوها... لولاهم ما تعلمت.. ولا كَشَـف لها السـفر عـن شيء، ولا كتبـت... مـا فعلته القرى السـياحية بالنـاس هي أنها جعلت السـفر مرادفا للرمل والبحر والشـمس.. خطأ... السـفر هو نـاس وتاريخ وثقافـة وتأمل ورحلـة تقطعها داخلك... فلا تسـمي نفسك «سافرت» لو لم تكتشف... قل: زرت كذا.. وكفى.

الكتابـة تحيرهـا وتحييهـا... تقنط حـين يعاندها النـص والتركيز، وتبـدو دنيتهـا «أصغـر مـن خـرم إبـرة»... فيأخذهـا تامـر لتمشي.. ويمسـك بالورقـة والقلم... يذكرها أنها تكتب لهـدف.. وأن الكتابة للكتابة ليسـت هدفا... فتهدأ... تعود لمسـودتها وتلتزم بالسـؤال: ما الـذي أريد أن أقول هنا؟ فتقول.. ترسـم أسـهما ودوائـر... ثم يولد النص... مشوشا في البداية.. ثم يملكها بالتدريج...

حـين كانت البنـت تعمل فيما مـضى في الصحافة.. قالـوا لها لابد أن توطـدي علاقاتـك بالنـاس؛ حتى تضمني فرصـة للنشر... وهي كانـت خجولـة وكانت لا تجيد «الـزن».. ففشـلت...فات هؤلاء أن

يعرفوا.... أن الله يرزق... وأن الأسـهل أن نصدق ونسـعى... نبتت لها على الطريق معلمتها.. الدكتورة «سامية محرز»... رشحت «سامية» الكتاب لناشرين.. وعدوا أن يقرأوه... وفوا.. وامتنت هي...

و حين سـألتها إيمان عن مقدمة الكتاب... قالت لها إنها تتمنى لو يكتبها دكتور محمد المخزنجي... اتصلت إيمان بسـارة.. سارة جاءت برقـم دكتـور محمـد.. لكنه لم يجـب... وحين سـألتها أنت يـا مهند.. حكـت لك عن محاولتها الفاشـلة للوصـول إلى الدكتور المخزنجي.. فضحكت... وقلت لها: «سأكلمه لكِ».

لم يكتـب الدكتـور المخزنجـي المقدمـة... لكنـه ناداهـا بـ«ابنتـي العزيزة».. فغبطت نفسـها... ثم أرسـل لها ملاحظاته على الكتاب.. فتعلمت...

تقـول الأسـطورة يـا مهنـد إن البـشر هـم كنـوز الأرض... وإن السـير يصنع الطريق... وإنه ينبغي عليك أن تحذر من الطرق الممهدة بالفعـل... لأنك قـد تكون ماضيا على طريق غـيرك... وطرق غيرك واجبة.. إن كانت تقودك لطريقك أنت....

وهي استـحت أن يكون اسمها على مقدمة الكتاب... بينما شكّله كل هؤلاء معها... ففكرت أن تكتب.. لترد الفضل لأهله.

نسمة جويلي

القاهرة

٢٠١٣\١٢\٢٥

اكتبوا رسائلكم لي وابعثوها إليَّ

nesma.gewily@gmail.com

للمزيد من صور الرحلة الملونة، زورونا على:

letaarfo.tumblr.com

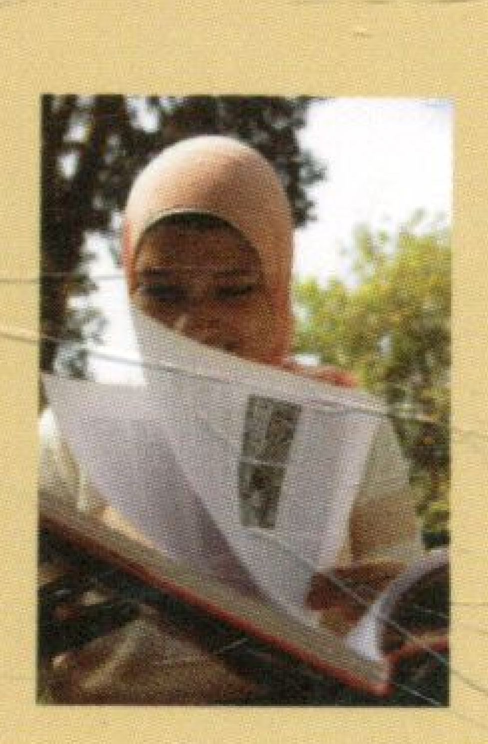


إرث الحكاية

«أين تتخبّأ فينا البدايات؟ وكيف تخدعنا؟ وكيف ننزرع بالحب وحده في الأرض دون أن ندري أننا نحب.. دون أن نعي أن الأرض حاضرة فينا... جذرًا وفروعًا وثمارًا؟ وكيف لا نقوى على الهرب حتى و إن اجتثثنا حكايتنا من هنا.. حتى ولو اوقفنا تراكمها وتتابعها وانتظامها وبدلناها بحكاية أخرى ولسان آخر؟ كيف يَكِلُّنا الحنين؟ متى يقرر أن يصحو ليميل بنا نحو الأرض التي تركناها؟».

كتاب جميل، وشجاع، ومرهف، وأكثر ما سحرني فيه، تلك المأثورات المفعمة بالجمال والروح، التي تنبثق من خطو الرحالة على أرض الرحلة، أو السندبادة المصرية في مغامرتها بمحيط الحكمة القديمة والشجن والفتنة الإنسانيين المتجددين، مصر، من سانت كاترين إلى سيوة، ومن جزيرة وسط بحيرة السد حتى الإسكندرية، تلك التي فجرت داخلها ينبوعًا من الحكايات الماثلة والموروثة، والرؤى الفلسفية المرهفة التي اعتبرها إضافة لأدب الرحلة وإرث الحكاية معًا.

م



نسمة جويلي؛ كاتبة ومدربة كتابة إبدا
العربي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.. وتتعلم م
وحكايات الناس. أسست مشروع «لتعارفوا»، و
الكتابة والتصوير كأداتين للتعريف بالناس و
وثقافتهم.


9 789770 932964

دار الشروق
www.shorouk.com